جعفر أبو التمن يقود حملة لمقاطعة شركة الكهرباء الأجنبية 1932

سائق أشهر قطار عراقي ينقذ ارواح 520 سجيناً سياسياً

مصيبة اهل الكوت

العراقي الذي كلف انكلترا مليون ليرة

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2475) السنة التاسعة
الاثنين (7) ايار 2012

9

الاخطل الصغير يكتب عن الرصافي

جعفر أبو التمن يقود حملة لمقاطعة شركة الكهرباء الأجنبية 1932

د. محمد حسين الزبيدي

منحت الحكومة العثمانية محمود الشابندر امتياز تنوير بغداد بالكهرباء وتاسيس مصلحة للترامواي لنقل الركاب، كان ذلك بتاريخ 12 اذار 1912 وقد شكل محمود الشابندر شركة لهذا الغرض وصادقت وزارة التجارة العثمانية على امتيازها في سنة 1914 . ولكن اعلان الحرب العالمية الاولى في ذلك الوقت عطل تنفيذ القرار.

ولما تشكل الحكم الوطني في العراق طالب صاحب الامتياز من الحكومة العراقية اقرار الامتياز فوافق مجلس الوزراء في 27 تشرين الاول 1921 على اعتبار الامتياز الممنوح للشركة قانونيا وطلب مجلس الوزراء من وزارة التجارة درس المسائل واقتراح تعديل الامتياز المذكور بصورة تتفق مع المصلحة العامة.

وعلى هذا الاساس اعيد النظر في امتياز محمود الشابندر ودامت المفاوضات والمشاورات حوالي سبع سنوات ولكن الطرفان لم يتفقا على صيغة معينة وعلى هذا تقرر احالة الموضوع الى وزارة المستعمرات البريطانية لتقول كلمتها الاخيرة .

وقد نظمت وزارة المستعمرات مقاولة اخيرة ولما عرضت على مجلس الوزراء العراقي اصابها بعض التعديل وكان اهم ما جاء فيها انها تستمر لمدة(٥٠) سنة من تاريخ صدور القانون الخاص بها، وعند انقضاء مدة الامتياز تصبح جميع المؤسسات والماكنات ملكا للحكومة بلا بدل، كما نصت على شراء الشركة الجديدة مشروع الكهرباء الذي اقامته السلطات البريطانية في بغداد بعد الاحتلال بمبلغ ٢٥ مليون باون ، كما حددت اجور الوحدة الكهربائية بـ٢٤ فلسا كحد اعلى وان تكون وزارة الاشغال والمواصلات العراقية شريكة مع الشركة في الارباح.

وقد وقعت هذه الاتفاقية من قبل الحكومة العراقية والشركة في ٢ حزيران ١٩٢٨ وعرضتها على المجلس النيابي في ٢٠ ايلول ١٩٢٨ لمناقشتها .

وقد اعترض جعفر ابو التمن مع عدد من النواب على استمرار الاتفاقية لمدة خمسين سنة من سنة ١٩٢٨ وطالب باستمرارها للمدة المذكورة من سنة ١٩١٢ وكذلك اعترض على تحديد الحد الاعلى بـ(٢٨ فلسا) وطالب بتوزيع الامتياز القديم على النواب للمقارنة بينه وبين الامتياز الجديد . وقد ايده في ذلك نائب بغداد محمود رامز وقد رد عليه عبد المحسن شلاش وزير الاشغال والمواصلات بان جعل مدة الامتياز من تاريخ عقده هي تحت البحث، اما الاجور فانها حد اعلى للسعر وهو احتياط نظرا لما يحتمل ان يصيب الشركة من خسارة اثناء المدة وليس المفروض ان تتقاضى الاسعار في الحد الاعلى كما اعتبر ذلك للترغيب في ادخال رؤوس الاموال الى الشركة ، كما اوضح الوزير ان للحكومة الحق خلال خمس سنين ان تعيد النظر في هذه الاجور.

وقد وضع جعفر ابو التمن امام مجلس النواب اقتراحين :-

اولهما : ان لايزيد سعر الوحدة المستهلكة عن ٢٠ فلسا للاستهلاك الشخصي ولا يزيد عن نصف ذلك للاستهلاك الصناعي والبلديات والجوامع والدواوين الحكومية والمدارس والمستشفيات .

وثانيهما:- تخصيص الارباح لامانة العاصمة بدلا من الحكومة

ولكن اقتراحاته لم تلق الموافقة من المجلس ولما عرضت لائحة الامتياز للتصويت وافق عليها ٥٨ نائباً وخالفها ٩ نواب بينهم جعفر ابو التمن وتغيب ٢٠ نائباً عن الجلسة.

باع محمود الشابندر امتيازه الى شركة انكليزية بلجيكية وكان اول عمل قامت به الشركة الجديدة هو التخلص من مشروع (الترامواي) باعتباره يستنزف جزءاً كبيراً من ارباحها التي تحصل عليها من التنوير الكهربائي فطلبت من الوزارة العراقية الموافقة على رفع مشروع الترامواي وادعت ان شوارع بغداد ضيقة لا تسمح بمد خطوط السكك عليها..

فوافقت وزارة نوري السعيد الاولى على

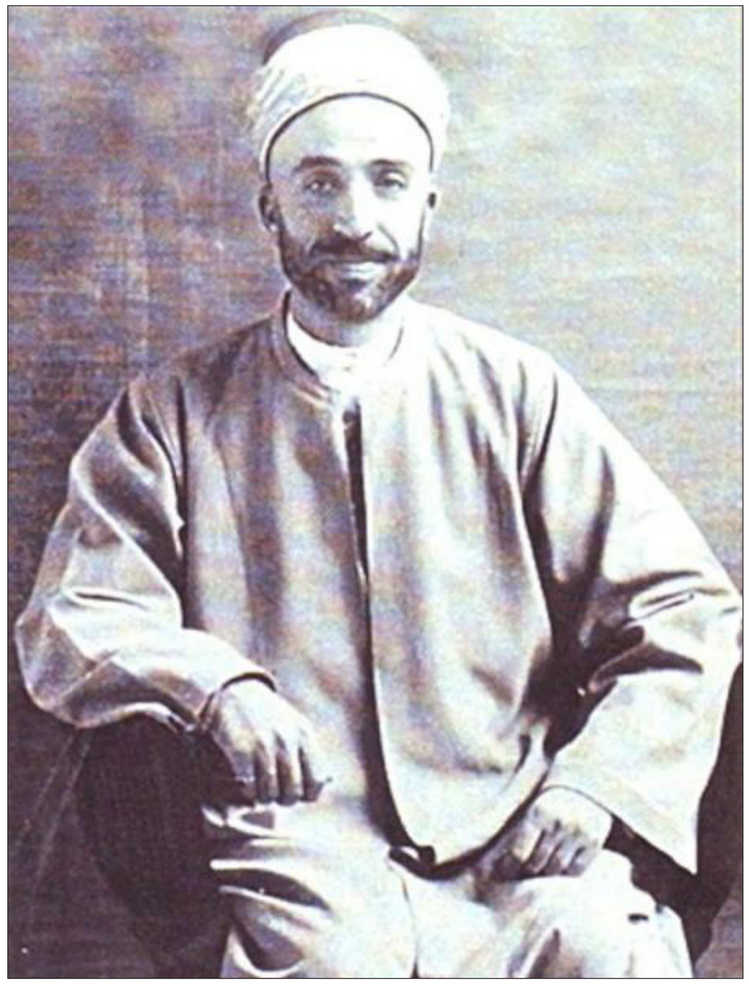

طلب الشركة وعرضت التعديل على المجلس النيابي في ١٩٣١ فوافق على هذا التعديل بالرغم من ان اللجنة الاقتصادية في المجلس دفعت تقريراً طالبت فيه بتخفيض الحد الاعلى لاجور الوحدة الكهربائية في مقابل رفع مشروع الترامواي الذي يتطلب مصاريف باهضة، وعلى هذا بقيت الشركة مقتصرة على التنوير فقط وصارت تستوفي ٢٨ فلسا عن كل وحدة كهربائية..

كان ما تاخذه شركة الكهرباء عن اجور الوحدة الكهربائية مرتفعا بالنسبة لمستوى المعيشة ومعدل دخل الفرد في ذلك الوقت وعليه فقد شعر المواطنون في بغداد بارتفاع هذه الاجور خلال الازمة الاقتصادية التي تعرض لها العالم في سنة ١٩٢٩-١٩٣٠.

واستمرت لسنوات عدة وقد تعرض لها العراق شأنه شأن بقية الاقطار الاخرى ، فسادت البطالة وهبطت اسعار المحاصيل الزراعية هبوطا كبيرا، وارتبك وضعه المالي الامر الذي اضطر الحكومات المتعاقبة الى تنزيل بعض الرسوم وتخفيض الكثير من الضرائب والاجور لتخفيض تلك الازمة .

انتشرت الدعوة لتخفيض اسعار الوحدة الكهربائية اسوة ببقية البضائع بناء على ما يعانيه المواطنون من ضيق بسبب الازمة الاقتصادية . وقد لاقت هذه الدعوة ترحيباً وتجاوباً حاراً بين الاوساط العمالية التي شعرت اكثر من غيرها بوطأة هذه الاسعار في هذه الازمة الاقتصادية . فسارعت جمعيات العمال الى تبني الدعوة لاسيما وان الاحزاب السياسية لم تكن بوضع يمكنها من اخذ زمام المبادرة فالحزب الوطني قد اصابه الضعف بسبب اعتزال معتمده جعفر ابي التمن ، وحزب الاخاء الوطني قد اصابه التصدع بسبب التناقض الذي وقع بين الشعارات التي رفعها حينما تاخى مع الحزب الوطني بتعديل معاهدة ١٩٣٠ وحل البرلمان الذي ابرمها، وخلو منهاج الوزارة التي تالفت في ١٠ اذار ١٩٣٣ من هذه الشعارات ما اثار انقسامات بين صفوفه، اما حزب العهد فهو حزب ضم عدداً من محترفي السياسة فلم يكن بوضع يسمح له ان يتبنى هذه الدعوة .

اخذت نقابات اتحاد العمال تعقد الاجتماعات لجمعيات العمال لدراسة هذه القضية مطالبة الشركة بتخفيض اجور الوحدة الكهربائية وقد استفادت النقابة من المادة (٤٦)من الامتياز الممنوح لشركة الكهرباء والذي يخول الحكومة المطالبة بتعديل الحد الاعلى من الاسعار بعد اليوم العاشر من تشرين الاول ١٩٣٣ اي بعد مرور خمس سنوات وكانت نتيجة هذه الاجتماعات ان وجه محمد صالح القزاز المعتمد العام لنقابة اتحاد العمال كتابا الى وزير الاقتصاد والمواصلات ووزير الداخلية ومدير شركة التنوير والكهرباء في بغداد في ٣ تشرين الاول ١٩٣٣ بين فيه ان شركة التنوير الكهربائي لاتنزال تتقاضى الاجور الباهضة التي لاتتناسب وحالة الشعب الراهنة بالرغم من كثرة الطلبات التي قدمت اليها وطالب الكتاب الذي افسحتم به مجال المقاطعة وما كانت تظن بكم ان تقوموا بمثل هذا العمل .

« لقد ظهرت النتائج السيئة لاعطاء المشاريع ذات النفع العام الى الشركات ، ومثال ذلك شركة الكهرباء الاجنبية التي تقوم بتنوير بغداد ، فقد كثر الاستياء من فداحة ما تستوفيه من اجور على وحدات الكهرباء، ولم تفعل الحكومة شيئاً يؤدي الى تحاشي هذه الشركة الازمة الاقتصادية. واعتبرت الجريدة تهاون الحكومة هو الذي دفع الشركة الى عدم اهتمامها لمطالب جمعيات العمال.

وكذلك كتبت جريدة الاستقلال تحث الناس على مقاطعة الكهرباء حتى تستجيب الشركة الى طلبات الشعب، واعتبرت المقاطعة واجباً وطنياً ومشروعاً لانه يثار بذلك الى كرامته ومصلحته من شركة الكهرباء التي امتصت دماءه وهزأت منه. ودعت الشعب لتحديد موعد بدء المقاطعة .

اظهر الشعب العراقي استجابة كبيرة لهذه الدعوة وكان في مقدمتهم جعفر ابو التمن فقد قاطع الكهرباء فاصدرت بيانا تضمن كشفا باجور الكهرباء في البلدان الاخرى المجاورة بمستوى اعلى من مستوى الاجور في بغداد واشارت الى ان الحكومة ما زالت تفاوض الشركة حول الاسعار وتأمل ان تتوصل الى اتفاق مرضي في القريب العاجل وهاجمت الحكومة في بيانها المطالبين بتخفيض الاجور ووصفتهم بانهم اشخاص اصحاب مصالح شخصية ومدفوعين بغايات خاصة، وحذرت الاهلين الانخداع بهم والسير ورائهم وهددت الحكومة ايضا بانها سوف تتخذ جميع الاجراءات والتدابير لحفظ النظام .

احدث هذا البيان ردود فعل كبيرة لدى الاهلين وقوبل باستياء شديد في الاوساط التي دعت للمقاطعة . فاصدر المجلس الاعلى لنقابة اتحاد العمال بياناً اعلنت فيه ان الاسعار التي نشرتها الحكومة غير صحيحة ومختلقة وان المؤسسات التي تتولى التنوير في البلدان الاخرى هي شركات اهلية في حين ان شركة الكهرباء في بغداد اجنبية وان بيان الحكومة هو دفاع عن شركة الكهرباء بينما يقضي واجب الحكومة ان تقف بمؤازرة الشعب في المطالبة بحقه او ان تكون محايدة على الاقل ، وان الاسعار التي نشرتها الحكومة هي اجور تستوفى على اساس وجود (الترامواي) بجانب الكهرباء بينما شركة كهرباء بغداد معفوة منه

امام هذا الوضع حدد المجلس الاعلى لنقابة اتحاد العمال يوم ٥ كانون الاول ١٩٣٣ موعداً لبدء المقاطعة في بيان اصدره ، اشار فيه الى التطورات التي صاحبت القضية ومعاناة الاهالي من ارتفاع الاسعار التي تستوفيها الشركة واصرارها وتعنتها امام المحاولات التي بذلت لتخفيضها بالرغم من ان الاسعار في البلدان المجاورة بل والاولوية المجاورة اقل منها في بغداد وبالرغم من ان الحكومة تساهلت مع الشركة بحيث اعفتها من انشاء الترامواي لما يسبب لها من اضرار.

وفي الختام خاطب البيان الاهالي بقوله :

لقد قمتم منذ بدء الدعوة الى المقاطعة بما يسجل لكم بمداد الفخر والاعجاب.. والان نأمل منكم ان تكونوا كالبنيان المرصوص في العاصمة حيث الامة لا تستطيع ان ترجع حقاً اغتصبه الاجنبي الا بالتآزر و التضامن وهؤلاء اخواننا السوريون ، لما وجدوا انفسهم مغبونين من شركة الكهرباء لم يروا سلاحا اقوى من المقاطعة فثابروا عليها الى ان نزلت الشركة عند مطاليبهم .

وحدد المجلس مطاليبه بتخفيض سعر الوحدة الكهربائية بمبلغ لايزيد عن ١٤ فلساً واعفاء الاهلين في بغداد من اجرة مقياس الكهرباء العائد للشركة وان توضع التأمينات التي تاخذها الشركة من الاهلين في احد المصارف وتصرف فوائدها على الجمعيات الخيرية كافة.

وبعد نشر هذا البيان تلقى المجلس الاعلى لنقابة اتحاد العمال التأييد المطلق من ارباب المهن والاصناف وبعض النوادي والمؤسسات والشخصيات السياسية والنواب وعمت المقاطعة الفنادق والمقاهي. حاولت الشركة ان تثني عزمهم عن المقاطعة باغرائهم باجراء بعض التنزيلات الخاصة بهم فقط..

اما الاحزاب السياسية فقد قاطع الحزب الوطني ونشر بيانا في جريدة الثبات اعلن فيه رأيه في ضرورة المقاطعة واوضح ان رأيه بانه لا يختلف عن رأي الجمهور المستمر بالشكوى من فداحة الاجور واستداد الشركة الاجنبية بمقدرات المستهلكين واعلن الحزب استنكاره لتهاون المسؤولين وتجاهلهم في معالجة الموضوع .

وكذلك قاطع حزب الاخاء الوطني ولكن حزب العهد لم يؤيد عملية المقاطعة.

وقفت اكثرية الصحف البغدادية الى جانب المقاطعة واستمرت في حث الاهلين على القيام بها وكانت جريدة الاهالي في طليعة الجرائد حيث واكبت عملية المقاطعة يوماً بيوم . وكانت تؤرخها في صدر صفحتها الاولى بقولها المقاطعة في يومها الاول ..... المقاطعة في يومها الثاني.....وهكذا في جميع ايام المقاطعة

وبعد ان استقحل الامر واشتدت المقاطعة حاولت الحكومة ان تتدخل بعد ان وقفت موقف المتفرج فاصدرت في ٧ كانون الاول ١٩٣٣ بيانا اعلنت فيه اتفاقها مع الشركة على تخفيض الاجور من ٢٨ فلساً الى ٢٦فلساً كما سعرت الوحدة الكهربائية بـ١٢فلساً بالنسبة للمحلات التي يزيد استهلاكها عن ٥٠ وحدة شهرياً ولكن مجلس النقابة استهان بهذا التخفيض ودعا الاهالي الى الاستمرار في المقاطعة باعتبار انه تخفيض لا يعتد به لان البيوت والمحلات التجارية الصغيرة لا تنتفع من هذا التخفيض انتفاعا جزئيا لانها لا تستهلك وحدات كثيرة .

مضى مجلس نقابة اتحاد العمال يواصل مساعيه لحث الاهلين على المقاطعة فاستجابوا اليها استجابة تامة فخلت مقاهي بغداد ونواحيها وفنادقها وعدد كبير من دورها من المصابيح الكهربائية ووضعت مكانها المصابيح النفطية واللوكسات والشموع .

استاءت الحكومة من هذه العملية وموقف الصحافة فيها فاستدعى ملاحظ المطبوعات وانذرهم وهددهم بانه بعد ان ذاعت الحكومة تخفيض اثمان الوحدات الكهربائية فانها تعتبر قضية الكهرباء انتهت وسوف تعطل اية صحيفة تكتب حول المقاطعة ، باعتبار ذلك اخلال في الامن .

لقد اعتبرت جريدة الاهالي هذا الانذار اهانة للصحافة واعترضت على موقف الحكومة الذي يعتبر دعوة الاهلين الى مقاطعة شركة الكهرباء الاجنبية اخلالاً بالامن العام. ولا تعتبر تعنت الشركة وعدم اهتمامها بطلبات الاهلين اجحافاً بحق المستهلكين الكثيرين الذين اتخذوا جميع السبل لان تخفض الشركة قيم الوحدات الى حد منصف فلم تفعل .

حاولت الحكومة ان تقاوم عملية المقاطعة هذه فاوعزت الى مديرية الاوقاف العامة ان تزود المساجد والتكايا بالمصابيح الكهربائية بدلا من اللوكسات والمصابيح الزيتية كما اوعزت الى امانة العاصمة الى تنوير بعض الشوارع الجديدة التي لم تكن منارة من قبل . تعويضاً لما اصاب الشركة من خسائر بسبب المقاطعة .

وقد لاقت اجراءات الحكومة هذه مقاومة عنيفة ، فقد احتج الخطباء في المساجد والجوامع ونظم المصلون مضابط تطالب بعدم استعمال الكهرباء في المساجد .

لم تجد نفعاً اجراءات الحكومة واستمرت المقاطعة فلجأت الحكومة الى استعمال العنف فطلب وزير الداخلية (ناجي شوكت) من متصرف بغداد القبض على محمد صالح القزاز وفي ٢٥ كانون الاول ١٩٣٣ القى القبض عليه وعلى ثلاثة من زملائه وغلق النقابة .

واحالتهم الى محكمة الجزاء فحكم عليهم بوضعهم تحت الرقابة لمدة ستة اشهر فارسلوا تحت الحراسة الى السليمانية ومكثوا هناك ثلاثة اشهر ثم صدر قرار محكمة التمييز بتخفيض العقوبة الى ثلاثة اشهر . فسمح لهم باختيار المكان الذي يريدونه عدا المكان الذي ترى الحكومة محذوراً من بقائهم فيه فاختاروا بعقوبة ويقوا فيها الى نهاية شهر اذار حين سمح لهم بالعودة الى بغداد .

وقد جرى تخفيض ثمن بمبلغ فلسين ، كما توقفت الشركة من استيفاء المائة فلس من الذين لا يصرفون اقل من المبلغ المذكور شهريا.

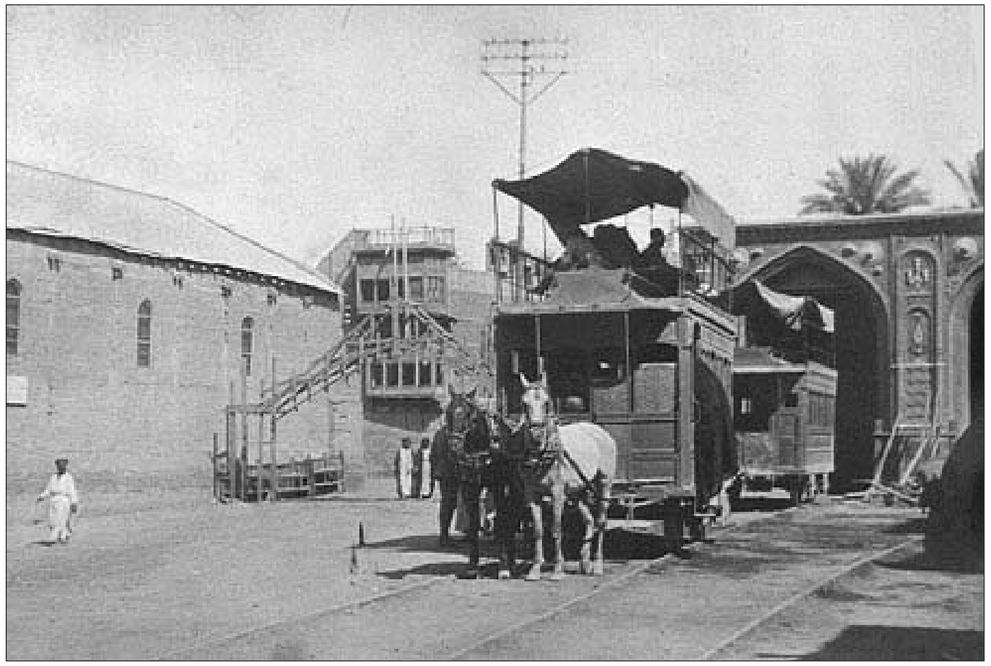

بغداد في الثلاثينات

مذكرات وليم ويلكوكس في العراق

ترجمة كاظم سعد الدين
باحث ومترجم عراقي

كان الليل مظلما ولكن الباخرة دخلت فجاة بحرا من النور الشفاف وشفت طريقها بين امواج من الذهب البراق.

– جنة مردوخ القصب في وجه الماء لكي يجعل الالة يسكن في المكان الذي يهواه.

جلب انتباهي اول مرة الى دلتا نهري دجلة والفرات سيرسيل سيرنك رايس الذي وضع بين يدي مذكرات الكابتن فيليكس جونز، من (البحرية الهندية) القديمة، وبعد قراءة تقريره عن البلاد وامكاناتها تحمس كما تحمس جينز قبل خمسين سنة فامضيت سنة ١٩٠٤ – ١٩٠٥ شهرا في بلاد بابل متنقلا على عجل فوق الجداول القديمة مسجلا مصبات النهيرات، جامعا عينات من التربة والماء، مستشيراً كل من لديه دراية محلية، فقدم لي سيرجون هيليوت من (قسم الارصاد الجوية الهندية) جميع المعلومات المتيسرة عن الاحوال الجوية للبلد، وزودني الميجور تيو مارج، المقيم البريطاني، بمعلومات متنوعة جمعها خلال سنتين، وجمعت شركي بلوكي وكري وشركاه تجارية، في الوقت الذي شرح م. موكل، مهندس الري المنطقة، نظام النهرين.

وحين وصل حزب تركيا الفتاة الى السلطة في ١٩٠٨، استدعاني كامل باشا، الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) الى اسطنبول، وعهد الي باعداد مشروع احياء منشآت الري القديمة في البلاد وعلى وفق ذلك غادرت مصر في تشرين الاول ١٩٠٨ مع اثني عشر مهندسا وفي نهاية نيسان ١٩١١ سلمت الخطط، والخرائط والتقارير والتقديرات التخمينية الى السلطات العثمانية، ونشر هذا التقرير مع خططه وتقديراته السادة اي واف. ان سبون بعنوان (ري بلاد الرافدين).

قبل البدء طلبت المشورة بشأن الطريقة الفضلى التي استطيع العمل بها مع الاتراك في العراق فقيل لي: (١- لا تتشاجر مع الالمان ابدا في اي شيء والا فانهم يدمرون عملك. ٢- لا تذكر ابدا كلمة هندي لان الاتراك يخشون دخول الهنود دلتا نهر الفرات. ٣- سوف يتظاهر كل موظف تركي باغباء لكي يستدرجك ، فهؤلاء الناس ليسو حمقى، وعليك الابقاء على خططك في الكتمان عند وجودهم!

كانت هذه النصيحة سليمة وقد افادتني طوال عملي لأجل الاتراك.

سافرت بطريق بومبي وكراتشي والخليج العربي ووصلت ارض البصرة العثمانية وهي تجربتي الاولى في الادارة التركية وكان على الباخرة الهندية البريطانية ان تخضع للحجر الصحي بسبب الطاعون في الهند كان زورق الحجر الذي بحر سنا ياخذ طعامه بالنظام من باخرتنا، ويحتاط للامر احد المقيمين في البصرة في (البلام) او زوارق النزهة ويغادرون ومعهم علب السيكار ومشروبات كحولية، ولدى مغادرتنا لاجل التعقيم، اقترب الموظفون المؤلولون عن ذلك الواجب مني، فاتبعت اسلوب اكثر المسافرين خبرة وقدمت خمس روبيات فضلا عن السبع ربيات وثماني انات، اجور الحجز، فسمحوا لي بالمرور وقد رشوا قليلا من الماء النظيف على سترتي، واخبرت ان كلمة (بلم) مع مصطلحات اخرى في الملاحة في نهر دجلة ادخلها اهل المايو الذين كانوا ملاحين في ما مضى في الشرق. وفي مصر اقتبست الكلمات المماثلة، (فلوكة) وغيرها من اصل البندقية.

وقد تبرع وكيل شركة الهند البريطانية متركما ان يكون مضيفنا في اثناء بقائنا في البصرة التي كانت قذرة، مهملة على نحو لا يوصف، ومع ذلك فان الطبيعة البشرية حتى في هذا المكان البدائي مشابهة كما في العالم المتمدن.

السيدة رامزي، زوجة المقيم البريطاني في بغداد، غادرت البصرة على الباخرة (كوميت)، ولم تبتعد كثيرا حتى رأيت امرأة عربية تحمل حليبا الى المدينة، فتوقفت الباخرة، وحين سألوا المرأة عن سعر الحليب، اعطت رقما يزيد عن السعر الذي يدفع في البصرة، ولما اعترضوا عليها، اجابت ببساطة متناهية ان السعر عال لأنها لم تخلط الحليب بالماء، ثم واصلنا رحلتنا صعودا الى بغداد الى احدى بواخر (لينج) مع عدد كبير من الزوار الهنود في طريقهم الى مراقد الائمة في كربلاء والنجف.

وفي رحلة لاحقة في الخليج رست باخرتنا في مرفأ بوشهر وتجنبنا اي اتصال بالمدينة لانها كانت مصابة بالطاعون، غير اننا كان علينا اخذ حقائب البريد من سفينة شراعية جاءت الينا ولما كانت السفينة متوقفة قرب باخرتنا، رأيت جرذا يصعد سارية السفينة ويقفز الى باخرتنا، فطاردته غير انه كان خفيفا واختفى في جانب الباخرة، في هذه الرحلة رأيت اعجب تآلف فسفوري يمكن تخيله، كان الليل مظلما ولكن الباخرة دخلت فجأة بحرا من النور الشفاف وشقت طريقها بين امواج من الذهب البراق، وراحت دلافين تسابق الباخرة. ومهما كان العمق فانها كانت تحت سطح الماء نير متألقة كانها انوار كهربائية في الوقت الذي كان الماء الذي ترشه الى الاعلى وهي تأتي الى السطح تصنع الغابا نارية كانت كل سمكة مضاءة بالطرق نفسها، وبدت الباخرة تجذب كل شيء اليها لأن المياه كانت مزدحمة بالاسماك والدلافين التي كانت تسايرها. وبعد عشر دقائق زال كل شيء، وبدا اننا دخلنا ظلا داسما.

لدى وصولنا بغداد حللت ضيفا على الكولونيل رامزي، المقيم البريطاني. وكان على المقيمية سبعون حارسا من السباهية ثم رست الباخرة المدفعية (كوميت، في دجلة امام المقيمية وقد اعادتنا المقيمية والحرس والباخرة المدفعية الى اغيام الحكومة الهندية التي كانت تجوب الخليج وتطهره من القراصنة، ولكنها كانت تجوب نهر دجلة من البصرة وبغداد وترسل احيانا احد عشر زورقا مدفعيا اعالى النهر. ولولا حكومة الهند لخلع وادي دجلة والفرات النهر التركي كما فعل وادي النيل في زمن محمد علي.

فالناس في مصر يقولون ان محمد علي بذل قصارى جهده لاقناع سلطان تركيا لكي يستولي على مصر ويسلم العراق على سبيل المبادلة كان لمحمد باشا الداغستاني العجوز والي بغداد تاريخ شائق.

مهند ابن اخي (شامل) البطل الجركسي، وقد اخذ حين كان شابا الى بتروكراد وعينوه مرافقا للقيصر. واخبرني انه ذهب الى لندن في حاشية القيصر الكزاندر، ورأى الملكة فكتوريا، ولما اندلعت الحرب الروسية التركية في ١٨٧٧ – ١٨٧٨، ذهب الى القيصر وطلب الاذن منه لكي يذهب الى اسطنبول ويخدم السلطان، فاعطاه الاذن ولى هاربا طلبا للنجاة بنفسه، فاستل الداغستاني سيفه وهجم على الاسد واعاده الى قفصه وحبسه فيه. في ذلك المساء اقتنع الجواسيس، الذين كانت تعج بهم اسطنبول وما تزال، السلطان لكي ينفي الداغستاني لانه رجل خطر، وقالوا له: انه لايخشى الاسد فهو لن يخشاك، ولعله يحبسك في يوم من الايام، "فنفي على الفور الى بغداد حيث وجدته في سنة ١٩٠٨، وعلى الرغم من توطد السلطان بغيظ من العاطفة، وحين سألته كيف يمكنه ان يحترم رجلا مثل عبد الحميد اجابني لو ان سلطان تركيا، رئيس الدين والدولة، طلب منه ان يقتل نفسه، لخلا الى نفسه في الحجرة المجاورة واغمد خنجره في قلبه، وقد اخبرني الجميع ان فعل ذلك ايسر عليه من قوله: وقمت باول رحلة قصيرة لي نزولا في نهر دجلة الى العمارة والعودة منها، واخذنا كثيرا من العينات من النهر وعشنا على الدراج والبط التي توجد بكثرة وكنا نتجول ومعنا حرس مسلحون وقد وجدنا العب يبتسمون باحترام ويمكن استرضاءهم، ورأينا ان البدو لم يكونوا بنصف السوء الذي رسموا به، وفي طريق عودتنا، وقد كنا على بعد (١٥٠ ميلا) من بغداد فكرنا اننا يمكن ان نستغني عن الحرس، فذهبنا، اثنان منا، للتنزه في الريف وحدنا، ولم نكن نحمل سوى عصى المشي باييدينا. سرنا نحو ميل ثم لاحظنا رجلا مريبا بيده بندقية يتبعنا على بعد نحو (٢٠٠ ياردة) وقبل ان نمضي وقتا طويل رأينا الرجل يجثوا على ركبة واحدة ويطلق طلقة متعمدة نحونا ولكنها اخطأتنا ثم نهض وسار مسرعا الى بعض الخيام عند الافق، وتبعناه ولحقنا به في الخيام وسألناه اطلق النار علينا دفاعا عن النفس لاننا اطلقنا النار عليه اولا فقلنا له ان ذلك غير صحيح لاننا لم نكن نحمل بندقية معنا، فما ان سمعوا اننا لا نحمل سلاحا حتى هجم علينا عشرين رجلا مسلح وغير مسلح وبعض الصبيان من المخيم واخذوا ساعتينا وافرغوا جيوبنا بوقت قصير جدا لا يصدق، حتى انهم ارادوا ان يقطعوا بزيمي حمالة سراويلي، واصروا على انها من الفضة ولكنني اقنعتهم ان يصدقوا كلامي انها مصنوعاه من الحديد. وعدنا سائرين الى باخرتنا، ثم رجعنا الى المخيم بصحبة حارس قوى وجعلناهم يعيدون الينا ساعتينا ونقودنا التي اخذوها.

ورفعنا تقريرا عن الامر الى اقرب مدير، وتعهد ان يستعيد سلسلتينا ان لم نخبر الوالي عن ذلك، فرفضنا وشكونا الى الوالي كل شيء فاسترجعها لنا. وكانت السلسلتان مقطعتين اوصالا غير انهما امكن اصلاحهما بسهولة. والقي القبض اخيرا على ثلاثة رجال وجلبوا الى بغداد وقد تعرفنا الى ملامح الرجل الذي اطلق النار، في الوقت الذي ظل العبد المسكين يقسم هو الذي اطلق النار ثم سرقنا. العبد قصيرة لي نزولا في نهر دجلة الى العمارة عمره خمسة وعشرون سنة، والمتهم خمس واربعون، والثالث اصغر قليلا، وظهر ثلاثة في المحكمة لابسين ثيابا متشابهة تماما، وكل منهم يروي الحكاية نفسها: "انا عمري تسعة عشر سنة، وصغير ، وجاهل، وطائش) واصدر القاضي التركي حكمه عليهم بالسجن ثلاث سنوات. وبذلك جهدي من اجل العبد لانه الوحيد في المخيم الذي دلنا على باخرتنا، غير ان القضاء، رفضوا تصديقه.

الشتاء في بغداد قارس جدا والطريقة الوحيدة التي بوسعي ان اكون دافئا في المخيم هي تزويد نفسي باغطية وبسط من فراء الغنم، وقد اخبروني ان الرعاة يدفأون انفسهم في ايام البرد بالنوم ملتفين حول الغنم، هؤلاء الرعاة كسالى جدا توجد حول عقروقوب ارض شاسعة مزروعة باللفت (الشلغم) الكبير الحجم الذي يؤلف الغذاء الشتوي للاغنام في سنوات المحل (عدم سقوط الامطار). فكان الرعاة يستلقون على ظهورهم في الوقت الذي تستخرج الاغنام الشلغم قدر استطاعتهم باسنانها واظلافها وقرونها.

في كانون الثاني ١٩١١، تساقطت الثلوج ثلاث مرات مما اصاب فروق المسح في خيامهم بعدم الراحة، غير ان روح الخير توجد دائما في حالات السوء فقد استطاع المهندسون تسوية ومسح مساحات شاسعة من الاهوار التي تجمدت بشكل صلب، ولم يكونوا قادرين في الشتاتين الماضيين على المشي فوقها، واخبرونا ان الثلج في بغداد لم يسقط بمثل هذه الكثافة والتواصل منذ ثلاثين سنة. وماتت مئات الالوف من اشجار النخيل في الواحات المحاذية للفرات وعلى الفرات نفسه. وكانت بساتين النخيل المثقل سعفه، ومن تحته تظهر الخضرة الغامقة باقواس رشيقة، جميلة بنحو غريب. وقد تضررت ثمار البرتقال كثيرا.

في اذار ١٩٠٩ انحدرت في نهر الفرات قريبا من كربلاء الى البصرة في زورق بخاري مع الكولونيل (رامزي) و(مستر فان اس) المبشر الامريكي في البصرة وكان الفيضان قد بدأ، وعلى الرغم من سهولة السير السريع في النهر حتى بداية اهوار النجف غير انه من الصعب عبور الاهوار نفسها. وكان مجرى الفرات المار ببابل والحلة الذي احلته النهر منذ (٤٠٠٠) عام قد امتلأ بالغرين، وصار الفيضان يشق ممرا في فرع الهندية ويملأ اهوار النجف برواسب الغرين.

صار نهر الفرات يشق مجرى جديدا في وسط هذا المستودع من الغرين الى منفذ الشنافية. وكان المستودع الغريني الجديد في الاهوار خصبا جدا ويزرعه العرب بالرز.

مررنا بمخيم واسع للجنود الاتراك الذين كانوا يحاولون جمع ضريبة الارض من الفلاحين. وقد كانت الملاحة سهلة من الشنافية الى الناصرية، مقابل اور الكلدانيين، والى سوق الشيوخ حيث كان النهر يسير الى مجراه القديم، غير ان الزورق البخاري تحتم عليه، بعد سوق الشيوخ، ان يسير في حذر واحتراس في الاهوار، فقد حافظ الفرات على مجراه القديم حتى قبل ثلاثين او اربعين سنة من سوق الشيوخ الى القرنة حيث كان يلتقي بدجلة، غير اننا وجدناه مشتتا في الارض وقد شق له ممرا جديدا الى كرمة علي، على بعد نحو ستة اميال شمالي البصرة، حيث يلتقي الان بدجلة. هذا على اي حال، لقينا ماء الفرات العذب، وبعد تجوال عدة ساعات في الاهوار وجدنا مجرى النهرالقرنة. وقد كان الماء صافيا سبخا، ليس فيه شيء من الوحل، ويسير بسرعة قليلة مررنا بخمسة جسور من الزوارق، كانت كلها، عدا اثنين عوائق لعبور النهر حيث جبيت منا مكوس عبور الجسور امامنا على الرغم من عدم وجود شيء يفتح. وجدنا في ما بعد جسرين اخرين من هذه الجسور الزائفة على نهر دجلة ودفعنا الفلوس مرة اخرى في اشد اجزاء اهوار النجف وحشية كان العرب يملكون سيقانا خارقة الطول وقد اندفعوا في الماء ليحاولوا ان يدنوا من زورقنا ومهاجمته واستخلاص (البخشيش)، غير انهم لم يفلحوا قط. وفي الشنافية يستطيع المرء ان يرى نهاية التعلية الترابية التي شيدها الاسكندر الكبير ليعزل الاهوار عن مجرى النهر. وفي اثناء عمله هنا، اصيب بحمى الملاريا التي مات بها. ولم نكن قادرين قبالة الوركاء على مغادرة النهر لرؤية الاثار لان البلد لم يكن مستقرا ولم يجروء احد على حراستنا. ونستطيع في بعض الاماكن ها هنا ان نرى بقايا الضفاف البابلية القديمة لنهر الفرات التي كان عرضها دائما نحو مئة قدم. وثمة قطاع ضيق من الريف على كلا جانبي النهر يزرع بالشعير ويروى بعدد من الدلاء الكبيرة التي تسحبها الثيران (الكرود) ويبدوا ان العرب هنا كثيرون جدا. وقبل ان نصل الناصرية مررنا بمخيمين واسعين منتشرين لعرب المنتفك. وفي الناصرية وجدنا المنصرف المسؤول غير انه لم يجروء على الانتقال خارج المدينة ما لم يصحبه ممثل من شيوخ المنتفك. ولما خرجنا راكبين لرؤية المنتفك. ولما خرجنا راكبين لرؤية الريف او خرائب اور الكلدانيين كان يحرسنا عرب المنتفك، واطلقت النار علينا بين الناصرية وسوق الشيوخ ثلاث مرات من عرب على ضفة النهر، غير انها اخطأتنا لحسن الحظ، وقدفونا بخراوق (رصاصات صغيرة) ولكنها لم تؤثر فينا ولما وصلنا سوق الشيوخ كوت الى القائممقام الذي اخبرني اني اخطأت خطأ عظيما لعدم اصطحاب ضابط شرطة معي، وانه سوف يرسل احدهم معنا حتى البصرة، وبعد ان سرنا ساعتين في الطريق لاحظت اننا لم نكن نرفع العلم التركي الذي كنت احرص دائما ان اعرضه للعيان. ولما سئلت الحرس لماذا لم يرفعوا العلم قالوا ان ضابط الشرطة القاه على ظهر الزورق، وحسنا فعل والا لاطلق عرب الاهوار علينا. كانت هذه الاهوار السفلى مرعى لقطعان عظيمة من الجاموس التي تسير في مياه عمقها قدمان او ثلاثة اقدام، وفي الوقت الذي يستعمل العرب مشاحيف كبيرة. وكان جميع عرب الجبايش يركضون في شكل حلقات وبنادقهم مرفوعة في الهواء فوق روؤسهم ويهوسون (يهتفون) ويدوسون (يضربون الارض باقدامهم، كان ذلك تمهيدا لشن غارة على قبيلة مجاورة، وكانت الحكومة التركية تشجع هذه الحروب بين القبائل بكل وسيلة تستطيعها، وفي القرنة التقينا نهر دجلة وخرجنا فورا من ماء الهور الصافي لنهر الفرات العريق الى مجرى النهر الأخر. ويعرف مجرى نهر دجلة ونهر الفرات القديم بشط العرب، ويبلغ طوله من القرنة الى الفاو (١٨٩) ميلا. ويعتقد ان النهر يروي عشرة ملايين نخلة على ضفافه التي تكون اعظم بساتين النخيل في العالم. وتقع جنة عدن الحقيقية في مزارع معينة حيث يرى المرء مساحات واسعة من البرسيم ترتفع فيها اشجار النخيل المتقاربة التي تحمي الارض من برد الشتاء الشديد وحرارة الصيف اللافحة. وتزين اشجار الكروم الوارفة ما بين النخيل، وتتدلى منها عناقيد العنب الارجوانية الكبيرة، اشجار الحياة هذه تقي الجنة ، الممنوعة التي قطفتها حواء حبا للاستطلاع، سببت لها الخراب، في الاهوار، عند ملتقى نهر الفرات العتيق ونهر دجلة العتيق، في جوار القرنة، كانت توجد جنة عدن السومريين التي وصفها واحد منهم:

((تنمو في اريدو كرمة داكنة،
زرعت في مكان جميل،
يمتد ظلها الى عريشة رائعة بهية،
لا يدخلها انسان،
يقيم فيها اله الشمس واله الشرق الجميل،
يحتضنها النهران حيث يلتقي
الماءان.))

وقد نشأت اقدم المستوطنات في البقعة الواقعة تحت ماء الفرات الاكمد اللون، الصالح للاستعمال.

((كان النهر يجري واسط كالبحر، حين انشأت اريدو، وحيث بنية به – ساكير،
به – ساكيل في وسط الماء العميق العذب،
حيث يسكن الاله صاحب المقام البهي،
وضع مردوخ القصب في وجه المياه، واقام ضفاف التراب التي يحميها القصب،
لكي يجعل الالهة تسكن في المكان الذي تهواه قلوبها.))

× كلمة «بلم» التي تعني (زورق) هي كلمة (بلم) العربية بمعنى نوع من السمك الصغير وقد شبه به الزورق لصغره ونحافته، وكلمة (فلكه) هي تصغير (فلك) بمعنى سفينة، فهما عربتان وليستا من لغة اهل الملايو او اصل البندقية.. المترجم.

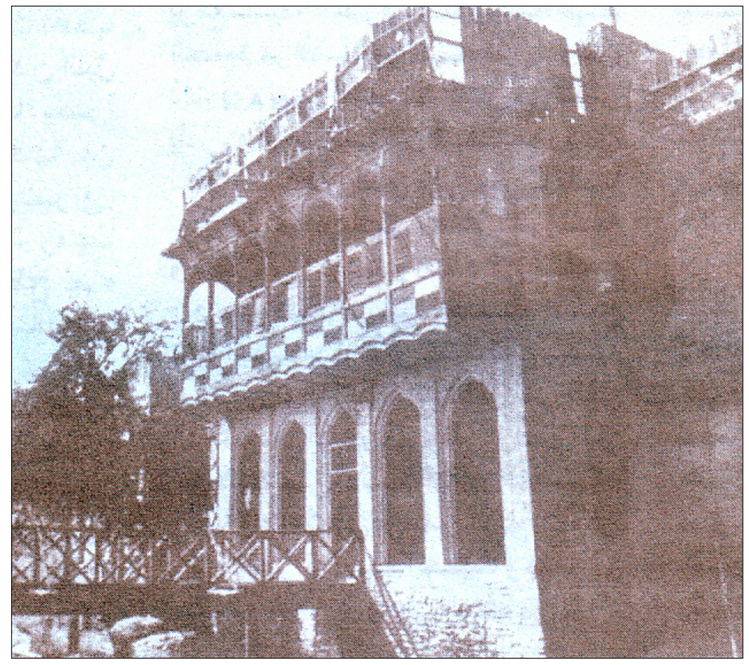

شناشيل البصرة

قطار الحمولة.. الى اين تمضي بركابك الميتين!؟

رحلة الموت الى السماوة

سائق أشهر قطار عراقي ينقذ ارواح 520 سجيناً سياسياً

عبد الكريم العبيدي

هكذا فجأة، تحولت خمس عشرة عربة من قطار حمولة قديم يستخدم لنقل الاغنام والماشية والاخشاب والحديد، الى قطار موت ورعب، قاده المرحوم عبد عباس المفرجي (اقدم سائق قطار عراقي) من المحطة العالمية في بغداد الى السماوة، في رحلة غرائبية، اختصر زمنها من عشر ساعات الى ستة (قرون) حمر مشحونة بكل اصناف الالام والرعب والضياع، ومليئة بالمفاجآت والمعجزات الكبار التي حالت دون وقوع ابشع جريمة سياسية واخلاقية في تاريخ العراق الحديث والقديم في آن واحد!!

رحلة (اعتيادية جداً)

قبل (٤٩) عاما، في ساعة متأخرة من ليلة ٣ على ٤ من تموز عام ١٩٦٣، استيقظ (عبد عباس المفرجي) على وقع ضربات صاخبة على باب بيته الواقع في حي العباسية – بغداد /كرادة مريم.

فتح الباب على عجل، وقلص عينيه ليتعرف على ضيوفه الطارئين، في تلك الليلة التي سيتذكرها طويلا، حتى بعد موته!

كان قلقا على مصير اخيه (المعتقل) وسط اجواء ملبدة بالغيوم، وانباء عن انقلاب عسكري وشيك، لكن ما رآه في صبيحة ذلك اليوم الذي شهد اندلاع حركة (حسن سريع) في معسكر الرشيد.. وكان كل ما يعرفه، شأنه شأن العراقيين جميعا هو ان انقلابا جديدا قد وقع، وان الموقف ما زال مضببا.. ولكنه فوجئ بمفرزة من حراس المحطة العالمية تبلغه عن رحلة مفاجئة تتطلب حضوره على الفور، لقيادة قطار حمولة، يحمل (مواد حديدية خاصة) الى السماوة.. فرك عينيه كثيرا وهو يتبين البلاغ الطارئ ويتفحص وجوههم، ورأى ان تلبية نداء الواجب اصوب من نومة قلقة لساعات اعتاد على ضياعها المتكرر.. ولذلك جهز نفسه على الفور، وذهب بمعية المفرزة الى المحطة، ليتسلم تعليمات رحلة (اعتيادية) الى السماوة تستغرق اكثر من عشر ساعات (ستصبح رحلة وحشية اجرامية بعد ساعتين فقط!!).

قلق

في العادة كان عبد عباس المفرجي يذهب، حال وصوله الى المحطة في رحلات كتلك، الى مأوى القاطرات لجلب القطار وحده (بدون عربات)، ويتجه به الى محطة غربي بغداد لغرض ربطه بالعربات التي عادة ما تكون جاثمة هناك، ولكنه لاحظ للمرة الاولى ان العربات كانت منقولة ومربوطة بالقطار، وان ابوابها مضروبة (سير وربد) وعندما تسلم (اللاين كلير) انتبه الى ان حراس القطار لم يزودوا بمفاتيح اقفال العربات، وان المحطة تبدو خالية من العمال المدنيين، كما لاحظ، وهذا ما جعله يعزف عن فرك عينيه المتكرر ويدرك ان المرحلة غرائبية جدا وليست اعتيادية كما جاء في اوراقها، ان الحضور هم من المسؤولين العسكريين وحرسهم، اضافة الى بعض المسؤولين الحزبيين، وعدد من رجال الحرس القومي (اشهر الحضور في تلك الليلة كان عبد السلام عارف وطاهر يحيى ورشيد مصلح الكريتي ومصطفى الفكيكي) حنق سائق القطار ايضا في وجوده الحرس،

عبد العباس المفرجي

ولاحظ حركتهم الخجلة وازياءهم المدنية المنتحلة وكأنهم في حفلة تنكرية، بسبب عدم اتقانهم لارتدائها، وادرك بفطرته ان من ارسلهم بهذه الازياء يهدف الى الامعان في التمويه، لكي يظهروا بمظهر عمال وفلاحين من ابناء منطقة الفرات الاوسط، وان مهمتهم الحقيقية هي منع واحباط اية محاولة قد تأتي من الخارج لكسر الاقفال ، طالما ان فتح الابواب من الداخل هو المستحيل بعينه.

فكر عبد عباس المفرجي مرة اخرى بتعليمات الرحلة، واسباب التأكيد على ضرورة السير (ببطء تام) للحفاظ على (المواد الحديدية الخاصة) وثارت شكوكه مرة اخرى حول نوع المواد التي يحملها القطار وسبب تعبئته بالذات لقيادة هذه المرحلة القاصمة.. فهو رجل مسالم، ليس سياسيا ولكنه امهر السائقين وخبير بالقطارات ورحلاتها!!.

العراقي المجهول

الاسوأ من كل ذلك ان القطار قطع حتى هذه اللحظة اكثر من (١٤٠) كيلومترا (!) وهو يسير ببطء شديد، تنفيذا للتوجيهات القاضية بضرورة الالتزام بسرعة القطار البطيئة جدا.. ولكن القلق الذي انهك عبد عباس لم يستمر طويلا، والقطار الذي تهادى كثيرا ملتزما بالتعليمات سيتحول ان (صاروخ)، اما الشكوك التي احاطت السائق فستصبح كمثل الصاعقة، وتقع على رأسه بعد جملة بدت وكأنها معجزة من السماء!

يقول سائق القطار (اثناء توقفي قبل منتصف الطريق في احدى المحطات صعد شخص مجهول في الثلاثين من عمره وقال لي: (خالي، تعرف ان حمولتك ليست حديدا، بل بشر، هم من افضل ابناء شعبنا)!!؟؟

ارتعد (المفرجي) منذهلا من هول الصدمة، ومن حقيقة لا يمكن تصديقها.. فكيف يمكن لأي انسان ان يتحمل حرارة شمس تموز التي تصل الى اكثر من (٥٠) درجة مئوي وهي في الظل، والى اضعافها في داخل عربات حديدية محكمة الاغلاق وغير مبطنة، ومعرضة لاشعة الشمس اللاهثة منذ عدة ساعات متواصلة!، بل كيف سيكون عليه الحال داخل تلك الافران المستعرة بعد ان يقطع القطار اكثر من (٢٨٨) كيلومترا حتى وصوله الى السماوة وهو يسير بمثل هذه السرعة البطيئة، التي ستتطلب ساعات اضافية كثيرة على معدل العشر ساعات المقررة لرحلة اعتيادية؟!

لم يصدق عبد عباس هذه الجملة الصاعقة، ولكن المشاهد العديدة، المثيرة للظنون عادت فتلبسته مرة اخرى، بوجوه اكثر وضوحا مما كانت عليه ولكن اكثر حيرة ايضا!، ما دعاه الى تبليغ مساعدة (الفايرمان) بالذهاب فورا الى العربات ومحاولة التأكد من صحة ادعاء ذلك (العراقي المجهول) لماذا يبقى مجهولا حتى هذه اللحظة؟!

وبعد لحظات بعمر الاعوام، عاد (الفايرمان) مصعوقا وهو يصرخ باعلى صوته (حجي، طلع الحجي صدك)، اي ان المعلومة كانت صحيحة تماما!!

ركاب قطار الموت

ما لم يكن يعرفه السائق انه في حوالي الساعة العاشرة من نهار الثالث من تموز، اي بعد ساعتين تقريبا على تغير الموقف لصالح السلطة، انعقد بمقر وزارة الدفاع، في ظل اجواء مشحونة بروح الانتقام، اجتماع خاص لما يسمى بـ (المجلس الوطني لقيادة الثورة) لدراسة احداث (حركة الرشيد العسكرية) واتخاذ القرارات اللازمة بشأنها، وكان عبد السلام عارف اول المتحدثين بضرورة الانتقام العشوائي، يقف وراءه كل من احمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وعبد الغني الراوي وعدد من العسكريين الاخرين.

وفي الاجتماع الثاني الذي عقد مقر وزارة الدفاع ايضا، كان الاقتراح الاول هو اعدام جميع الضباط والمدنيين المعتقلين في السجن العسكري رقم واحد، ويقدر عددهم باكثر من الف معتقل!

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة اتفق الجميع على تشكيل (محكمة عسكرية) لمحاكمة المشاركين والمتهمين بحركة حسن سريع العسكرية، والغاء فكرة الاعدام العشوائي وتقليصها الى مجزرة دموية (محددة) تشمل اعدام عدد من الضباط والمدنيين من السجن رقم واحد.. ولكن العدد تصاعد فيما بعد ووصل الى (٥٢٠) معتقلا بعد ان شمل معتقلين من ذوي التعليم العالي يمثلون كل خريطة المجتمع العراقي القومية والدينية والسياسية، ثم انتقاؤهم من قبل المجلس نفسه، وشكلوا ما عرف بـ (ركاب قطار الموت) حين تقرر اعدامهم خارج بغداد، بعد نقلهم الى سجن (انقرة السلمان) قرب الحدود العراقية السعودية.

شتائم وتشجيع!

وفي تلك الليلة الثموزية الساخنة، سمع المعتقلين في سجن رقم واحد وفي غيره من السجون طبعا، حركة واصواتا غريبة تتصاعد.. ثم فتحت ابواب الزنزانات الواحدة تلو الاخرى، وتليت قوائم باسماء عدد كبير من المعتقلين.. بعدها قام حرس السجن بجمع المعتقلين على الرصيف، وتم ربط ايديهم بالحبال خلف ظهورهم وراح الضباط (الاشاوس) يكيلون الشتائم والاهانات، بينما كان ضباط الصف يهمسون في اذانهم بعبارات التشجيع اثناء عملية الربط، التي تعمدوا ان تكون خفيفة!

ثم دفعوا بعدها الى عربات نقل عسكرية، اتجهت بهم الى الطرف الآخر من بغداد، وعندها ادركوا ان حركة السير تبدو طبيعية، وان الحياة ما زالت هادئة، على عكس تصوراتهم حول ارتباك النظام واضطراب الحياة، وهذا مازاد في احباطهم!...

وبمجرد ان لاحظوا ان العربات الناقلة تتجه بهم صوب المحطة العالمية، اعتقد اغلبهم انهم ذاهبون الى ساحة الرمي في ام الطبول!

الاعدام خنقاً!!

وصلت عربات، النقل العسكرية الى محطة القطار قبيل منتصف الليل، وهناك قضى المعتقلون وقتا طويلا وقوفا امام المحطة، بدأ يتكون.

× تحولت جميع العربات الخمس عشرة المؤلفة لقطار الموت الى جحيم حقيقي بعد ان قطع (١١٠) كيلو مترات بين محطتي الحلة والهاشمية!..

× حسب التقديرات العلمية والطبية، يستسلم المعتقلون جميعا الى الموت بعد ساعتين فقط!

× بعض ركاب قطار الموت ترنم باغاني واناشيد شعبية قبل ان يستسلموا جميعا الى قدرهم المحتوم!

× في حوالي الساعة التاسعة من ذلك الصباح المشؤوم، بدأت حالة الركاب تسوء بسبب نضوح العرق وانخفاض نسبة الماء والاملاح في اجسامهم، فشعروا بالاختناق والغثيان وهبوط ضغط الدم والضيق والاغماء والتقيؤ والتبول وبعدها فقدوا الرغبة بكل شيء!

× يقول احد السجناء (بدأت اجسامنا تفقد سوائلها بسبب التعرق الشديد، واصبح الوقوف على الاقدام مؤلما جدا، والاتكاء على العربة غير ممكن، ولم تكن بحوزتنا قطرة ماء واحدة!

× بعد الغثيان ونقص الاوكسجين، انشغل الكثير من الركاب ببحث عبثي يائس، فاجتذبوا حول ثقوب (وهمية) لاستنشاق الهواء، رغم معرفتهم بها!..

× اغرب ما قام به ركاب قطار الموت انهم مارسوا عملية لحس عرق من الاجزاء المكشوفة من اجسادهم ثم تصارعوا على لحس عرق اجساد بعضهم البعض!

× الاطباء في قطار الموت من المعتقلين نصحوا رفاقهم بعدم خلع ملابسهم لكي يحفظوا طاقتهم كما يفعل البدو في الصحراء.

× الكثير من المعتقلين مارسوا الصراخ والضرب على الجدران لكي يلفتوا الانظار ولكن من دون جدوى!.

× لا احد من السجناء كان يعرف يقينا كيف سينتهي به الحال، خصوصا وهو يعلم علم اليقين انهم متروكون وحدهم لمصيرهم المحتوم.

× في اعلى درجات اليأس الذي خيم على المعتقلين جميعا، في تلك العتمات الخانقة سمعوا صوتا خافتا من الخارج قرب شق الباب يقول (اخواني اصبروا، سيأتي الفرج قريبا.. سائق القطار لم يدر ما هو حمل قطاره، وقد ادرك الان وسيصل بكم الى السماوة بسرعة) .. كان شرطيا عراقيا شريفا (مجهولا ايضا)!، انتقل من عربة الى اخرى لينقل الى المعتقلين نفس الرسالة!.

× عندما شعر ركاب قطار الموت بتزايد سرعة القطار الى الدرجة التي بدأت معها العربات تهتز وتتأرجح لفرط السرعة، انتعشت امالهم من جديد، وتشبثوا بالحياة ولو كانت وهما!.

× لم يعرف السجناء ولا غيرهم حتى الان كيف علم ذلك النفر من ابناء المحاويل او في اية محطة اخرى بسر ذلك القطار، ليحتشدوا حاملين اسطل الماء لرش عرباته، اثناء توقف القطار ، او حين يبطئ من سرعته في محطات اخر!.

القرار الصعب

كل هذه الاحداث العاصفة واللقطات العنيفة لم يكن سائق القطار يعرفها، لا هو ولا حتى رجال الحرس.. انهم ضحايا ايضا مثل ركاب القطار، ومثل الملايين المحكومة (دائما) بالبطش والارهاب والخداع.. ينفذون جرائم الطغاة بصمت، واذا ما علم احدهم بسر هذه الجريمة او تلك، اختار واحدا من اثنين، اما الذهاب الى حبل المشنقة (طوعا) او حفر نفق ضيق والعيش فيه الى الابد.

(عبد عباس) عرف الآن سر حمولة قطاره (وهذه جريمة!) وادراك انه يقود توابيت جماعية (وهذه جريمة كبرى) ، واذا ما استمر بتنفيذ التعليمات حتى نهاية المرحلة فإن جميع الركاب سيدركهم الموت حتما.. ما ذا الذي يفهه قتل كل هؤلاء الناس؟، ولماذا يضعونهم في تنانير (يغطس) داخلها الدواب؟!

قرأ (ابو مظهر) المحنة من كل جوانبها، وادرك انه في يوم عصيب، ولكنه اختار عراقيته بسرعة، فحزم امره واطلق صفارته مستعجلا حراس حمولته، لينطلق بقطاره قبل الموعد المحدد وبسرعة قصوى غير مسموح بها لقطار حمولة في كل الاحوال.. لم يعد يهمه شيء اكثر من ايصال هذه (الامانة) باقصى سرعة (انهم من خيرة شباب العراق) وهو هو (المخدوع) يدرك سرهم وسر (الوجوه المهمة) التي حضرت مراسيم الوداع والحرس الذين يحرسون (الحديد) دونما علم!!

يقول السائق (وقعت في ورطة الخيار بين انقاذ الارواح البرئية وبين احتمال العقوبات المترتبة على عدم الالتزام بالتعليمات ولكن واهنة، وتزحف ببطء من ظلام القبور نحو الماء والهواء والضوء.. كانوا موتى احياء يحركون اصابعهم ويطلبون العون المتأخر جدا في لحظة هي الاقرب الى الموت في تلك الزنازين المظلمة.. سقط بعضهم على الرصيف وتمدد آخرون قرب القطار فيما زحف قسم منهم نحو (حنفية الماء) اما المغمى عليهم فظلوا على نومتهم حتى بعد رش الماء على وجوههم مما تطلب ارسال سبعة منهم بسيارة اسعاف الى المستشفى (توفي احدهم وهو الرائد يحيى نادر).

كان العنصر الامني والحرس جميعا في حالة ذهول تام وهم يرون (المواد الحديدية) وقد تحولت فجأة الى مخلوقات ادمية زاحفة من اول عربة، وعندها صرخ رجل الامن باعلى صوته (هاي رادوا يخلوها براسي) ثم امر بفتح كافة العربات فورا فتساقطت بقايا اشباح بشرية، وراحت تحبو على الرصيف كاسراب النمل، عارية الا من (الفانيلة واللباس)!!

تظاهرة عفوية

هرع المحتشدون في محطة السماوة، من رجال ونسوة واطفال، من دون اذن لمساعدة الحراس على فتح الابواب ومساعدة السجناء على السير واعطائهم الماء مع (لهمة) ملح بامر من احد الاطباء المسجونين (هو الضابط الطبيب رافد صبحي اديب)، ثم اقاموا لهم الولائم التي تكفي لاضعافهم، ورشوا على وجوههم الماء واحاطوهم بالرعاية، وراح عددهم يتزايد بعد توافد الآلاف من اهالي السماوة الذين سمعوا بخبر القطار ومحنة ركابه.

ولم يستطع رجال الامن والشرطة منعهم بل تعاون الجميع على مساعدة ركاب القطار وانقاذهم.

وعندما وصلت مفرزة من (الحرس القومي) الى المحطة لاحظت ان المشهد الذي فرضه الاهالي جعلهم في حيرة، وفرض عليهم الية مغايرة للتوقعات وسط الدهشة التي صعقتهم من وصول القطار بهذه السرعة وتجمع الاهالي لاستقبال الركاب وانقاذهم.. وادركوا من الوهلة الاولى ان سائق القطار (تصرف خلافا للاوامر والتوقعات وتجاوز التعليمات المحددة له فانقذ الركاب من موت محقق كان سيحصل في منتصف الطريق وليس في هذه المحطة)!!

وهذه الخيبة دفعت بامر المفرزة الى اصدار اوامر وقحة والتصرف بوحشية وسط اجواء انسانية بريئة تهدف الى انقاذ سجناء عراقيين سياسيين تعرضوا للتعذيب والموت من اجل وطنهم وها هم يخرجون باعجوبة من موت محقق.. ولذلك، وكردة فعل طبيعية، اندفع احد السجناء (وهو الملازم قيس محمد صالح) نحو امر المفرزة السيء الطباع ولطمه (براشدي عراقي اصلي) فتحول المشهد الى صخب وصياح واستفز رجال الحرس والشرطة والحرس القومي وكانت ان تتحول المظاهرة (الانسانية) الى معركة دامية بعد اصرار امر المفرزة على تسلم الملازم قيس، ولكن السجناء جميعا وقفوا حول زميلهم وقالوا بصوت واحد، نموت جميعا ولا نسلمه!!

(22) ساعة موت

بقي ركاب القطار طيلة ذلك اليوم في مركز الشرطة لاحتواء الغضب الذي عم مدينة السماوة (نتيجة ما تسبب به سائق القطار من فوضى نظرا لعدم التزامه بلوحة المواعيد)!!.. وفي اليوم الثاني ٧/٥ جرى تعبئتهم بخمس عشرة عربة سجن اقلتهم الى نقرة السلمان في رحلة صحراوية قاسية.. وبذلك تكون رحلة الموت قد بلغت من وقف اطلاق النار في معسكر الرشيد الى نقرة السلمان اكثر من اثنتين وعشرين ساعة!!.

((سائق اشهر قطار عراقي))

هو اول سائق قطار عراقي ، ومن مؤسسي نقابة السكك في العام ١٩٣٦. قام بافتتاح الجسر الحديدي القديم في منطقة الكرنتينة بقيادته القطار بدلا من سائق هندي تخاذل قبل المهمة. في العام ١٩٤٨ وبعد انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي بادر بتهريب عدد من ملاكات الحزب الشيوعي بقطار طوروس الى تركيا ، وكان من بينهم (عبد تمر) الذي انعقد المؤتمر في بيته. بعد عودته الى بغداد بيوم واحد من رحلة قطار الموت استدعي الى مديرية السكك وتسلم امر فصله من العمل لمدة ستة اشهر والغاء امر ترقيته فعاد (الى بيته مسرورا مرتاح الضمير) كمار روى نجله الصحفي المعروف مظهر المفرجي رحمه الله.

ظل طوال حياته يعيد سرد تلك الرحلة الرهيبة ويفخر انقذ ارواح السجناء العراقيين وخاطر بحياته من اجل المواطن (واعتزازا) بالزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان يحبه كثيرا... ولكنه كان يوصي اولاده بكتمان قصة الحادث خشية بطش النظام السابق، لم يكرم طوال حياته من اي جهة عدا بعض الكتب والروايات والقصائد التي تناولت مأثره وعراقيته.

بعد احالته على التقاعد ، ظل يبكي لمدة يوميين بسبب ابتعاده عن عالم القطارات والسكك والرحلات، وفي العام ١٩٨٧ استعدي من مديرية الأمن لغرض سؤاله على مصير نجله المطلوب القاء القبض عليه من قبل النظام السابق، وبعد اطلاق سراحه عصرا اصيب بجلطة قلبية توفي على اثرها رحمه الله.

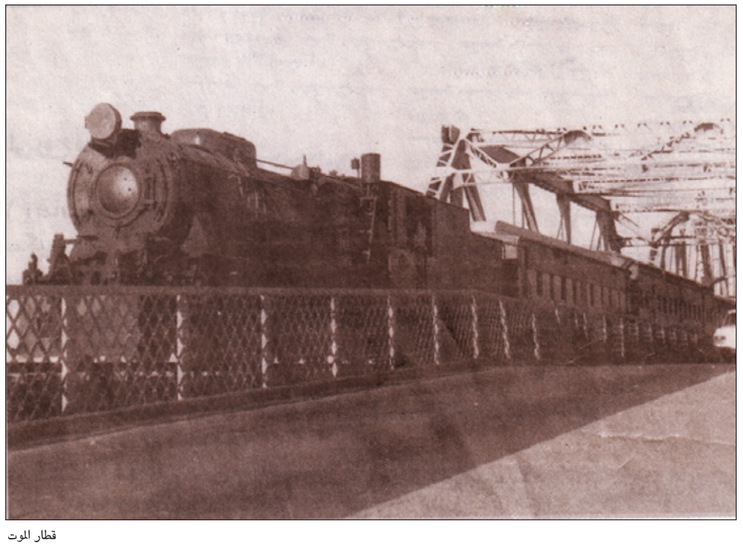
قطار الموت

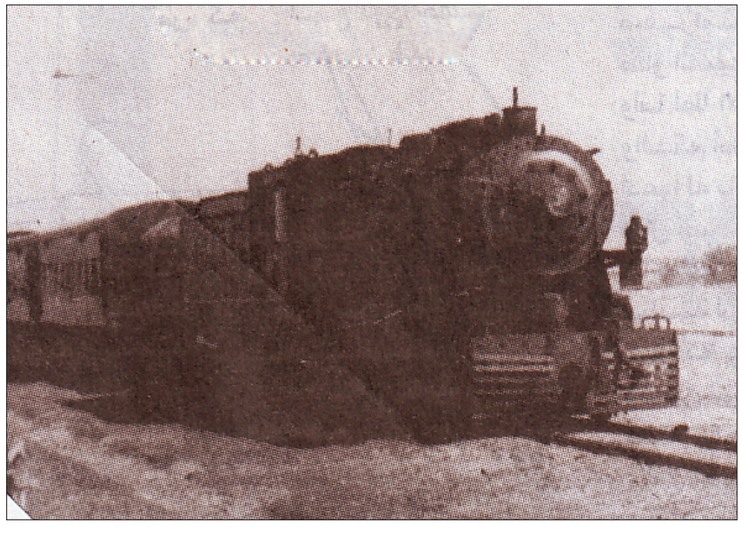

عندما كان سوق القزازين ببغداد رمز التآخي بين اليهود والمسلمين

نسيم قزاز
كاتب يهودي عراقي

"يا حادي العيس عرّج كي اودعهم
يا حدي العيس في ترحالك الأجل"

سوق القزازين كان من اقدم الأسواق في بغداد تباع فيه انواع منتجات الحرير.

والقزاز هو بائع القز او خيوط الابريسم التي تستعمل لمختلف الاغراض، كنسيج عباءات سود للنساء من الصرف والحرير وعباءات بالوان مختلفة للرجال وكذلك لنسج الفوط (مفردها فوطة) وهي قطعة منسوجة من خيوط الابريسم تصبغ بعد نسجها باللون الأسود على الغالب ترتديها النساء العراقيات المسلمات لتغطية الرأس وستر الصدر والعنق.

كان سوق القزازين، كما عهدته في الاربعينات من القرن المنصرم، من الأسواق التي مازالت عامرة في بغداد وارجو ان تكون اليوم كذلك.

موقعها كان امتداداً لسوق الحرير وسوق البزازين، ولم يتعد طولها الـ (١٠٠) متر، مسقفة باقواس من العقائد (مفردها عقادة او عكادة) في وسط كل منها فتحة (سماية) تدخل منها اشعة الشمس وتضيء السوق.

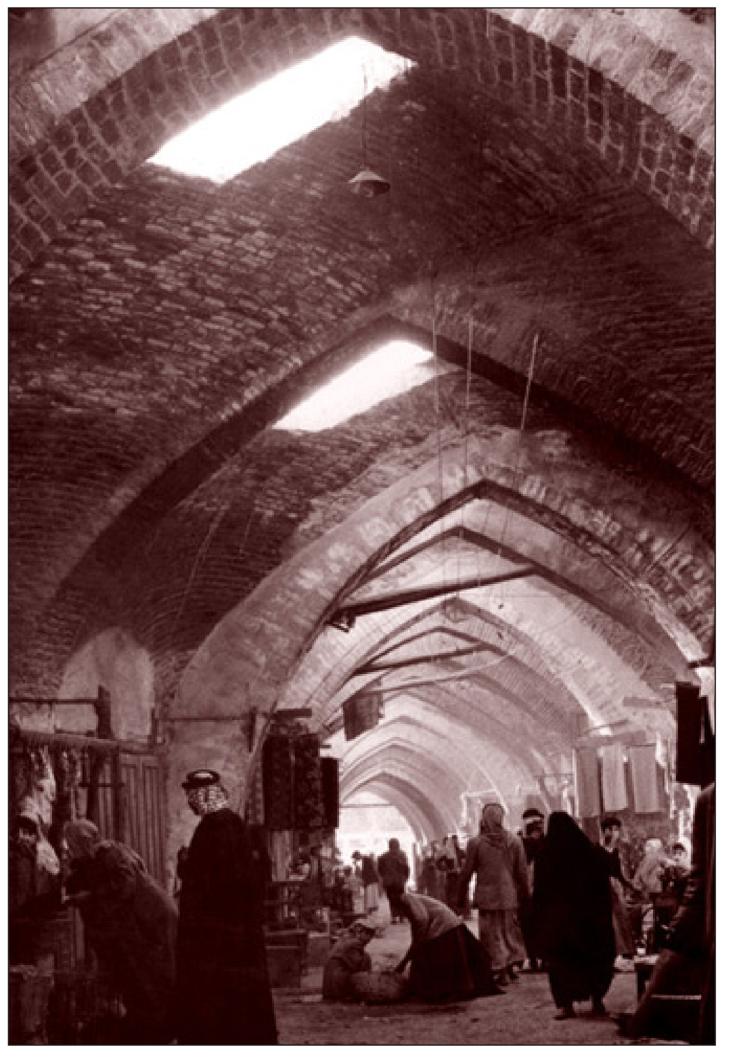

القز هو الحرير، وتستخرج خيوطه (خيوط الابريسم) من دود القز المربات على اشجار التوت التي تتغذى من اوراقها بعد ان يكون اللعاب الذي افرزته قد جف وتشرنق.

قديما كان الحرير وخيوط الابريسم يأتي الى العراق من الصين محمولة على الابل والدواب في درب الحرير الاسطوري.

اما اليوم فتستورد بالات الابريسم بالجملة عبر اليم الى البصرة من الصين ومن بلاد شرق وجنوب اسيا ثم تباع على القزازين الذين كانوا يمرروها بعدة مراحل بما في ذلك سلقها وصبغها وفتلها عند اصحاب مهن تخصص كل منهم في مهنته لتصنيعها لمختلف الحاجيات والاغراض.

منها: نسج فوط النساء وعباءات الرجال بالوانها او فتلها لصنع القياطين.

وتطريز "الجراغد"، و"الجراغد" هو غطاء نسائي للرأس اسود اللون ينتهي بشراشب من خيوط الابريسم واحيانا من خيوط "الفنطازي"، تسترسل على جبين المرأة وتزيدها حسنا وجمالا.

وهنا لابد ان اتوقف على اغنية عراقية شعبية فيها حبيب يخاطب عشيقته صاحبة الجرغد:

يا حليوة يا ام دكات
يا ام جرغد المايل
غيرج ما نا حبيت
والله ما نا عايل

و"الفنطازي" غير الابريسم، فهو خيوط مصنوعة من الاعشاب تتفسخ في الماء عند غسيلها وكانت "رصناتها"، كما كانت تسمى رزمها، تستورد من ايطاليا ثم تصبغ باللون الاسود فتفتل وتصبح جاهزة وسعرها ارخص من سعر الابريسم.

وكان كل من الأبريسم والفنطازي والخيوط الذهبية والفضية (الكلبدون الاصفر او الابيض) يباع بالمثقال الذي يعادل وزنه (٤,٦٨٠) غرام او مايساوي وزن ٦٥ حبة شعير.

وعلى ما اتذكر كان سعر مثقال الفنطازي المفتول في الاربعينات من القرن المنصرم فلسين بينما كان سعر الابريسم ضعف ذلك.

واعتاد القزازون من كافة مدن العراق المجيء الى بغداد لشراء مختلف انواع ومصنوعات الابريسم والكلبدون بالجملة وحينها يكون البيع بـ "الجكي" (لعله اصطلاح فارسي او تركي) وهو معيار يساوي ١٠٠ مثقال.

وكان عدد الدكاكين التي مارس اصحابها مهنة القزازة في سوق القزازين لا يتجاوز اثني عشرة دكانا نصفها تعود لليهود والنصف الاخر للمسلمين المتنين للشيعة الجعفرية، اتذكر منهم الحاج حسن وابنه صادق والحاج علي وابنه محمد وجعفر وابنه جلال وهادي وكاظم وكلهم ينتمون الى اسرة واحدة موسعة (حمولة).

وكان لكل قزاز حجرة في خان مجاور يخزن فيها فائض بضاعات الابريسم للجلب بعد ذلك الى الدكاكين للبيع عند الحاجة.

وتعرف هذه السوق عند عامة الناس بـ "سوق القزازين"، اما رسميا فاسمها "سوق الخرج" نسبة الى القياطين المصنوعة من خيوط الابريسم او الكلبدون التي كانت تباع فيها ثم تخاط في صدر عباءات الرجال.

وكان على جدار السوق في اولها لوحة قديمة، لعلها من العهد العثماني، مكتوب عليها "سوق الخرج".

لقد كانت العلاقات بين مختلف الطبقات في سوق القزازين متسمة بالتسامح والاحترام المتبادل سواء اكان ذلك بين القزازين انفسهم او مع اصحاب المهن كالفتالين والصباغين و"الاجيات" اي العلامات (مفردها اجية – لعله مصطلح تركي).

فكان هناك فتالات يهوديان وصباغ يدعى سيد نايل كانت له مصبغة في سوق الدهانة وكان بارعا في صبغ الابريسم بالوان مطابقة تماما للالوان عباءات الرجال، بينما كان صباغ اللون الاسود يهوديا.

وكذلك "الاجيات" كن من الطبقة الفقيرة خليطا من يهوديا ومسلمات من سكان الكاظمية و"عكاد الاكراد".

كان سكان بغداد المسلمون في تلك الايام وخاصة قبل استفحال قضية فلسطين وتغلغل الدعاية النازية في اوساط واسعة من السكان يكنون كل الاحترام للجالية اليهودية ولقمدساتها، وكان اليهودي يلقب تحببيا بـ "ابن السبت". وكثيرا ما كنت اسمع النساء المسلمات اللواتي يريدن شراء ابريسم يوجهن سؤالهن لوالدي وينادونه "ابن السبت"، عندك ابريسم مال فوط؟".

وكانت هناك اغنية شعبية يعزز مضمونها ما اقول، جاء فيها:

لروح لأبن السبت وافرا بقرعائه
واجيب شدة ورد وازرع ابستانه
واشما لغفها بالحضن وتكول بردائه
ومنين جاك البرد عيني يا لبنيه

ويلاحظ في البيت الاول من هذه الاغنية الشعبية ان الالف تحولت الى عين فجاءت "بقرعانه" بينما كان يجب ان تكون "بقرآنه"، وهذا التحول من ألف الى عين والعكس يطرأ احيانا على بعض المفدات في اللغة العامية العراقية يتأثير لهجة قبيلة تميم التي كانت تقلب الالف الى عين.

ومع مزيد الأسف لم يكتب الدوام وطول الحياة لأغان من هذا النوع وانمحت من الذاكرة مع تصاعد التطرف والعداء.

ومع هذا وفي اشد الظروف واحلك الفترات عندما تلبدت الاجواء وتفاقمت الاوضاع بقيت روح التعايش والتأخي سائدة في سوق القزازين بين مختلف اصحابه ورواده.

واليك عزيزي القارئ عدة امثلة لبيان نوعية ومدى ذلك التعايش والتسامح:

– كان بعض القزازين يعلق في مقدم حانوته لوحة كتب عليها "الدين ممنوع والعتب مرفوع والرزق على الله".

ولكن والدي لم يتبع هذا النهج وكان بعض الزبونات المسلمات يشترين منه بضاعة الابريسم بالدين ولم يكن والدي يسجل ذلك ويكتفي بكلمتين لا اكثر موجهتين لضمير المشترية كفيلتين بالتسديد ويقول:

"ترى بذمتج!"

وبعد ما قتل الوالد في مذبحة الفرهود عام ١٩٤١ حل محله في الدكان اخي ابراهيم ونعيم اخو المرحوم منير خليف شريك ابي الذي قتل هو الاخر في تلك الفاجعة الاليمة.

وكان الاثنان حديثي العهد في التجارة والبيع والشراء حيث لم يتجاوز سن ابراهيم الـ ١٩ ونعيم كان في وائل الـ ٢٠ من العمر ولم يكن لهما معرفة بتلك الديون ولا بالمستدينات اللواتي اسر عن في رد ما عليهن وهن يعرفن ان اصحاب الدكتن الجدد لا يعرفون شيئا عن تلك الديون، واحيانا كنت اسمع البعض منهن يمتمتن بصوت خافت عند دفعها "إحنه ما نبوك من اليهودي".

– كان الفتالان في سوق القزازين يهوديين، احدهما روبين وكان من سكان محلة ابو سيفين المجاورة لمحلة ابو شبل الاسلامية الواقعة في اقصى الشرق من بغداد ومن باقي الاحياء اليهودية ومتاخمة لـ "راس الجول".

وكان سكان كلتي المحلتين من الطبقة الفقيرة عرفوا بخشونتهم وعدم تورعهم. وكان روبين خفيف الدم، ماهرا في مهنته، احبه القزازون وحاولوا الحفاظ على علاقات طيبة معه.

كان يأتي الى السوق حافي القدمين وعلى رأسه طاقية (عرقچين) وعلى كتفه كوفية (يشماغ) مرتديا في الصيف دشداشة دون ملابس اخرى لا من فوقها ولا من تحتها (بطرك الدشداشة).

وكان اصحاب الدكاكين يتناولون الغذاء داخل دكاكينهم حيث يؤتى به من البيوت محمولا بـ "السفرطاس".

وكنت كثيرا ما اقوم بهذه المهمة. واول سؤال من روبين كان "اكو شين بالسفرطاس" ثم يجلس ليفرغ ما تبقى فيه ولكنه لم يكن يكتفي بذلك ويبدأ يحوم في السوق بحثا وراء ما تبقى من فضلات دون ان يتورع من سؤال بعض القزازين الشيعة او يراعي مشاعرهم ويخص منهم هادي القزاز الذي كان اكثر ليبراليا من الاخرين وكان يسمح له باشباع بطنه ولكن بالخفاء.

لذا كان يومى اليه ان اذهب الى الحجرة في الخان وانتظرني هناك وساتيك بـ "السفرطاس". وكان الكثير من اصحاب المطاعم يعلقون لوحات كتب عليها "خاص للمسلمين".

احترازا من دخول اليهود اليها وذلك لان تعاليم الشيعة تمنع من مشاركة اليهود في الطعام والشراب.

وفي هذا الصدد يقول الاديب والشاعر انور شاؤول.

وهو من اعلام يهود العراق في العراق الحديث ومن مواليد الحلة، في كتابه قصة حياتي في وادي الرافدين. "فعلى شاطئ الفرات الذي يخترق الحلة الفيحاء تنبث بعض المقاهي البدائية، كل ما فيها مقاعد من القصب وارائك من الخشب البالي يجتمع فيها الناس لارتشاف القهوة وتدخين السكاير والنراكيل وقضاء فترة من السمر تمتد احيانا الى ساعات متأخرة من المساء. ولم يكن ممنوعا او عسيرا على اليهودي الحلي ان يرتاد مثل هذه المقاهي، انما كان عليه، مراعاة لمشاعر اخوانه المسلمين ان يجلب معه فنجانه الخاص تصب فيه القهوة، ان كان من محتسيها، فيشربها ويعيد الفنجان الى جيبه.

وهذه العادة كانت متبعة كذلك في مجالس الفاتحة ومراسيم عقود الزواج.

وكان هذا النهج سائدا عند المحافظين من شيعة بغداد نحو اصدقائهم ومعارفهم وكثيرا ما كنت في ايام الصيف اذهب باناء الى مقهى قريب من سوق القزازين لجلب الماء.

فكان صاحب المقهى يمنعني من عمس انائي في الزير او "الحب" كما كان يسمى عند البغداديين ويبادر الى غرف الماء من الزير بـ "الدولكة" التي تعود الى المقهى وهو إناء من النحاس كبير نسبيا يستخدم لصب الماء في اكواب الشرب التي كانت تسمى انذاك "كلاصات"، ثم يفرغه في انائي دون ام يمس اناؤه إنائي.

وان انس فلا انسى موقف القزازين الشيعة النبيل منا بعد مقتل الوالد وشريكه في مذبحة الفرهود عندما وضع "ألقيم على اموال الغائبين" يده على محتويات الدكان والحجرة من ابريسم وكلبدون وكل شيء آخر وجد فيهما ومهرهما بالشمع الى حين بيعها بالمزاد العلني.

واتخذت هذه الاجراءات لأن ورثة المرحوم منير خليف شريك الوالد كانوا قصر وكذلك خمسة من ورثة والدي، وانا من بينهم، كنا قاصرين لم نبلغ سن الرشد وتحتم بيع الارث واعطاء البالغين حصتهم منه واتمان وصي من افراد العائلة تودع عنده حصص القاصرين حتى بلوغهم سن الرشد.

وكل هذه الاجراءات كانت تجريها "دائرة القيم على اموال الغائبين" التي بادرت بالاعلان على المزاد العلني واشرفت على تنفيذه.

وذاع خبر المزاد العلني عند القزازين في جميع انحاء العراق وتوافدوا الى بغداد في اليوم المعين املا لنيل حصة من الغنيمة وشراء البضاعة بابخس الاسعار تقل عن نصف سعرها.

ولكن سرعان ما انهارت تلك الاحلام عندما انبرى لهم القزازون الشيعة النبلاء زملاء الوالد في سوق القزازين وكل منهم يحمل خنجرا او هراوة او توثية او جماغاً يهدد فيه كل من تسول له نفسه الاقدام على الشراء في المزاد، معلنين "هذا مال حلال ويجب ان يعود الى أهله".

ثم ابتاعوا المال من المزاد بارخص الاسعار واعادوه الينا كما سددنا لهم المبلغ الذي بذلوه لشرائه في المزاد العلني.

نعم، ان نصرتهم لنا في اصعب مراحل العمر وفي محنة اليتم التي عانينا منها والتي مازلت اتذكرها واورويها ما هي إلا شهادة نبل وشهامة ومروة قل نظيرها في تلك الايام العصيبة، اسجلها لذكراهم هنا مع خالص الشكر والامتنان رحمهم الله ورحم موتاهم.

لقد مضت تلك الايام من دون رجعة ولم يبق في العراق من يجدد ذلك العهد وتلك الاخلاق النبيلة، بعد ان صار الاخ يقتل اخاه، حين خانت حكومات العراق يهودها وتخلت عنهم وجمدت اموالهم ثم فرهدتها مرة اخرى، واليوم يبكي العراق على يهوده بعد ان "ضيع في الصيف اللبن"، اقول هذا والذكريات تجيش في قلبي وتعصف في خاطري وتزيدني حزنا والما.

واليوم اتساءل يا اخي يا عراقي: "وهل لك بالحر الذي يحفظ اليدا؟".

"اني على العهد لم انكت مودتهم
يا ليت شعري لطول العهد ما فعلوا".

فصل من كتاب سيصدر عن تاريخ مدينة بغداد
تأليف نسيم قزاز

من بقايا الذاكرة

الاخطل الصغير

سبقت معروف الرصافي شهرته الينا بما كانت تنشره له صحف مصر قبل اعلان الدستور من غرر القصائد تنبعث منا لفحات الحرية ويتطاير عن جوانبها شرر الوطنية حتى اعتقدنا ان معروف الرصافي اسم مستعار لشاعر عراقي كبير والا فكيف يجسر رجل يظله خيال عبد الحميد ورجال عبد الحميد علي بعث هذه الثورة في قلب البلاد العثمانية وينفخ في موقد الاصلاح الاسلامي في بلد كبغداد حيث تسود الرجعية الدينية وتطغى انذاك.

فاذا انت قرات له في "سجن بغداد" وهي من ابرع قصائده:

بلاد انساخ الذل فيها بكلكل
على كل مفتول السبالين اصيد

ثم اذا قرأت له في قصيدته "التربية والامهات":

وقالوا شرحة الاسلام تقضي
بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الاسلام كذبا
نزول الشم منه مزلزلات

شككت في ان يكون الرصافي اسما لرجل من لحم ودم يستهدف لنقمة السلطان ومن تحت قدميه البوسفور، ولم نفي بغداد من الرجعيين، وهم حرب على رجال الاصلاح يخشون منهم ان يقطعوا ما بينهم وبين العامة فيهوون صغارا ويموتون جوعا.

ولكن معروف الرصافي لم يلبث ان قدم بيروت في اوائل شباط سنة ١٩٠٩ فاجتمعنا اليه لأول مرة في قهوة البحر وقد ذهبت اليها مع الشاعر المعروف اسعد رستم فاذا هو يحيط به الشيخ رشيد رضا والشيخ محيي الدين الخياط والشيخ مصطفى الغلايبني والشيخ محمد ياسين ومحمد افندي باقر، ولقد كان الرصافي مجببا معمما، فذكرنا مجلسه معنا بتلك المجالس التي نقرا عنها في كتب الادب عندما كان يجلس النابغة بين شعراء المدينة ينصتون اليه ويقومون على تبجيله.

ولقد كان الرصافي على ما اذكر يطرب لطريقة رستم حتى كثيرا ما كان يقاطعه قائلا: هذا هو الشعر..

وكان الرصافي الشاعر يفي الكأس كما يقي القرطاس جقه فما لبثنا ان انتزعناه – ممتنا – من حلقه قطبها الشيخ رضا الى حلقة اخرى قطبها العازار وما ادراك بالفرق بين الحلقتين!

وكان "الكلوب"، وهو يجابه مدرسة الثلاثة الاقمار القديمة، مقرا ليليا لنا ونحن عصبة من اعضائها المرحوم الشيخ يوسف ابي صعب وسعيد صياغة واميل خوري واسعد رستم وديب العم ويوسف نخلة ثابت وجرجي نخلة سعد وجرجي باز وامين تقي الدين والياس فياض، وغيرهم من الادباء وعشاق الادب، ولا تزال تلك الليالي اعذب ذكريات الماضي لجميع الذين ترشفوا زلالها وتفيأوا ظلالها.

ولم يطل الرصافي مقامه في بيروت لانه كان في طريقه الى الاستانة وقد دعى اليها ليتولى انشاء جريدة "اقدام".

×××

عاد الرصافي من الاستانة في اواخر آب سنة ١٩٠٩ فاقبل توا على ادارة "البرق" – عادة معظم ادباء ذلك العهد – وكنا ساعتئذ نهم بنزهة في الجبل فلم يتردد الاستاذ في قبول دعوتنا لاسيما وقد كان الريحاني في الفريكة، فاطبقنا به واحتللنا صيوانه وقد كان يصحبنا الاديب الفكه المرحوم الياس خليل شديد يمتعنا بنكاته حينا وبصوته حينا.

في الحق انها متعة الانفس ومشتهاها "الرصافي والريحاني" يتلاقيان لأول مرة تحت وابل من الاحاديث العلمية والاراء في الالوهية وتاثير القمر في الجاذبية، ومكان المراة الشرقية من الرجلالى الف "ضربة" اخرى.

لا اكذب.. انها تبرأتهما كانت تقع في اذني وانا ورفيقي جالسان الى مائدة اعتنت بها سيدة المنزل الجليلة ايما عناية، فكانت كؤوسنا تقهقه بها سيدة المنزل حتى ايقظتهما من ذلك البحر ان فهرولا الينا وشاركانا بما لدينا.

وودعنا الرحياني في الصباح نضرب الى بيت شباب فبكفيا فالشوير فبحنس، وقد اجتمعنا فيها بالشيخ كنعان الضاهر، وكان يومئذ قائممقام المتن، ثم هبطنا بعبدات عند الظهر، فسرنا الى منزل الاستاذ نعوم اللبكي فكانت لنا فتكة بالكبة، ولم يفلح معنا غيرها من الوان الطعام.

ولم نكد ننزل الى بيروت حتى تلقيت من الصديق الريحاني الرسالة الاتية:

عزيزي بشارة..

ان يوما قضيته عندنا مع شاعرنا الرصافي المحبوب وذلك "الشديد" المضروب لكوقفة الحسون علي غصن الزيتون.

اما "البرق" فلا يفوتك ارساله مع الموزع كي لا يضيع في المدينة عند الاصحاب، وما من احد يكره "البرق" في الظلمات، ولا لوم على من يختطف مثل هذه الجريدة فان بعض الاشياء المقدسة متسامح بسرقتها في بعض الاحيان "والبرق" عندي من هذه الاشياء، فاني وان كنت لا اجد فيه دائما ما اتمناه انسى عندما اطالع صفحاته المتقنة المرتبة الجميلة الظاهر والباطن ما يتطلبه العقل دائما من بنيه والحقيقة من انصارها على انكم لم تقصروا والله في خدمة الاثنين ونصرهما، قواكم ووفقكم في جهادكم.

صديقكم امين ريحاني

وعاد الرصافي الى بغداد وكنت قد اقترحت عليه اثر نزولنا من الجبل نظم قصيدة في لبنان فما هو ان استقر في بغداد حتى جاءني منه كتاب اشار فيه الى هذه القصيدة.

ولقد كان للقصيدة التي نظمها شاعر العراق في لبنان وقعها المستحب فتناقلتها الصحف في سوريا ومصر واميركا حتى اقترح بعضهم اقامة حفلة تكريم للرصافي في مدينة بيروت ليعرب له اللبنانيون عن شعورهم نحوه وتقديرهم تلك العواطف الطيبة التي ترقرقت على قصيدته الجميلة.

وبعد فهذا كتاب شاعر العراق الينا:

اخي ومولاي

اخذت كتابك فطربت صدق احساسك وعلو تصورك ونزاهة مقالك وها هي السيكارة امامي يتصاعد دخانها في الفضاء وخيالك نصب عيني غير انه لا يتلاشى في مخيلتي كما يتلاشى دخانها في الفضاء.

كتبت على غلاف كتابك "لا تنسى قصيدة لبنان" وما كنت لها ناسيا ولكن الشواغل كانت مانعة غير ان كلمتك هذه منحتني قوة تغلبت بها على تلك الشواغل فراجعت شيطاني في الشعر فطاوعني حتى اخذت اكتب قصيدة تم منها الان زهاء اربعين بيتا غير انها لم تستوف المرام بعد بتمامه وانا اذكر لك هنا شيئا عنها تستأنس به حتى اذا تمت ارسلتها اليك او جئت بها معي هديه.

من نسيم جو العراق الهاب على شطوط دجلة والفرات ابى شيطان الشعر الا ان اقدم شيئا من النسيب في هذه القصيدة فقلت في مطلعها:

برزت تميس كخطوة النشوان
هيفاء مخجلة غصون البان

وبعد ان كتبت عدة ابيات في النسيب تخلصت الى ذكر لبنان فيها بقولي:

لم انس في قلبي صعود غرامها
اذ نحن نصعد في ربى لبنان

وهنا وصفت لبنان بابيات ثم اخذت اخاطب صاحبي بشارة والياس بقولي:

يا صاحبي اتذكر ان فأنني
لم انس بعد كما سوى النسيان
اذ كان يغبطنا الزمان ونحن في
وادي الفريكة مثبت الريحان

وهنا اخذت اهيم في وديان لبنان وهضابه ضاربا صفحا عن ذكر حومل والدخول الى ذكر بيت شباب وبكفيا، وعن ذكر الغوير الى ذكر الشوبر ثم تخلصت الى ذكر اهل لبنان بقولي:

تلك الربى اما الجمال فواحد
فيها واما اهلها فاثنان
رجل يسير الى النجاح وآخر
يسعى وغايته الى الحسران

واخذت في هذا الموضوع بما ستقرأه ولم ادر هل اسقط هنا في سخط اهل لبنان الكرام او في رضاهم؟

وصلتني اعداد "البرق" وقدمت الاعداد الخمسة منه الى جميل افندي الزهاوي وهو يشكرك ويقرئك السلام كما يقرئك السلام مشفوعا بكل احترام محبك واخوك

معروف الرصافي

الرصافي

ولم يقم الرصافي طويلا في بغداد حتى ابرقنا اليه بالحضور بناء على برقية من الاستانة تأذن بتعيينه استاذا للعربية في مدرسة الحكومة مع تحرير جريدة كان قد ازمع على اصدارها باسم "سبيل الرشاد" فنزل الرصافي في بيروت على قلوب تشتاقه واشواق ترتقبه، وكنت قد هيأت مجلسا في "الكلوب" جمعت فيه بين الشيخ عبد الله البستاني وبينه فكانت حفلة بديعة كتبت على اثرها في البرق ٤ ك١ من عام ١٩٠٩ هذه الشاردة:

هي ليلة التقى فيها الرصافي بالبستاني وكان "الكلوب" نقطة الدائرة وكنا – بارك الله – نحوا من خمسة عشر (ذاة) على لغة لبنان الرسمية – وكان يوحشنا شيخنا العازار لولا الذي انشده داود مجاعص واميل خوري من شعره ووقف له الرصافي اعجابا.

وشرب البستاني نبخ زميله فقال:

اني لاشربها على ذكر امري،
هو بالبلاغة والنهى معروف
ان كنت ننكره فليس فضائر
ابدا عليه فانه معروف

فرد عليه الرصافي بقوله:

اني لاشربها على شرف الذي
الفضل فيه ليس بالمتناهى
ان الفصاحة والبلاغة والنهى
والفضل اجمع عند عبد الله

ثم كانت لليلة اخرى حضرها العازار وانشدنا الرصافي فيها فصيدته "العالم شعر" فما هو ان انتهى منها حتى استكتبنا العازار هذين البيتين:

الا ان هذا الشعر من ابد الشعر
فلا تعجبوا ان كان في شعره سكري
ولا تعجبوا ان كنت اهواه انه
عيون المهى بين الرصافة والجسر

ومضت لنا ليال على هذا النمط حتى اذا هممنا بالانصراف نادي "ابو متري" قيم "الكلوب" بالخادم "فوت عالاوضه كنس اشعار".

ولقد جمعت بين الرصافي والبستاني والعازار في رسم واحد فكانت من احسن الاثار في تاريخ الادب العربي وقد ظهر فيه الرصافي بالبدلة الافرنجية التي كان يرتديها عند خروجه من بغداد حتى اذا عاد اليها عاد الى جبته وعمته.

وقد كتب الشيخ عبدالله تحت هذا الرسم هذين البيتين:

ان نلت يا بين من اجسادنا طبعت
فيها لشاكي النوى الانوار اشباحا
تخال ارواحنا روحا اذا اجتمعت
وان تناءت تخال الروح ارواحا

واصبح الرصافي بعد ذلك "مبعوثا" وغامر مع من غامر في السياسة فاصبح مقامه في بيروت كما يحط الطائر على الغصن، ولكنه كان ولا يزال يحمل لواء الشعر العالي في الشرق الغربي، غير ان خروجه من بغداد وملامسته للحضارة الغربية رققت من ديباجته الاولى فلم يزد من قيمة شعره القديم الذي انفطر عليه، فهو ما برح عندي شاعر "السجن في بغداد" و"التربية والامهات" و"ام اليتيم" و"العالم شعر" و"اليتيم في العيد" و"الصديق المضاع" وكلها مما نظمه يوم كان الرصافي عندنا "اسما مستعارا" لشاعر محبوب، هذا عدا قصيدة "اليتيم في العيد" فلقد بدا ينظمها في الاستانة لسفرته الاولى اليها واتمها في النزهة القصيرة التي صرفناها معا في الجبل.

هذا هو الرصافي ذلك الشاعر الذي حمل بقصائده الثورية على العرش الحميدي وهو في قلب بغداد ايام كان معظم القائمين في الامر هنا يتهالكون على نظرة رضى وانحناء جبين.

مجلة القلم آب 1962

من مآسي الحرب العظمى

مصيبة أهل الكوت

عبد الحميد الكينن

كنا اربعة ممن يجالدون الفقر، ادلجنا من "الشيخ سعد" على ظهور الخيل نريده الكوت".. فبلغنا عند الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الثامنة من ايلول عام ١٩٢٨.

وتلمس مكان للمبيت في ليل ادهم بين ازقة ضيقة نجوبها ونحن على متون الجياد ليس بالامر اليسير على خيالة لم يطرقوا تلك الازقة من قبل. وحتى في وضح النهار، وان كان بعضهم مر بالبلدة بطريق النهر، وعرف شيئا عن امتداد الساحل، ومسافة قصيرة تؤدي الى عمق السوق، حيث ليس للمستطرق ان يلم بما تشتمل عليه البلدة من ازقة وتعاريج ومنعطفات .

وبينما نحن نفكر فيما ننتخذه من اهبة للتغلب على التعب والنعاس اثناء الشطر الباقي من الليل، اذ التقينا برجل لنسأله ان يدلنا الى خان نأوي اليه او الى اصطبل – على الاقلم – نربط به الجياد، فاعتذر بلهجة تنم عن الخشونة والملام! مصرا على انه ليس بمقدوره ان يرشد اناسا الى مأوى في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل، وانه لو كان صاحب خان لما استطاع ان ياوينا اليه!!

التفت الى احد رفقاء السفر قائلا: "لا تعجب! فان اهل الكوت معروفون بقلة المروّة!" فقلت له: "وانت ايضا لا تعجب! فان قلة المروّة الملصقة بهم، مستمدة من قلة مروّة الجنرال طونزند الذي اذاقهم الوان العذاب في اشهر الحصار التي ما عرفه ابدا تاريخ الحروب!". فمن حق هؤلاء المساكين المعاصرين للحصار ان تستولي العقد النفسية على نفوسهم بحيث تعود بهم ذكراه الاليمة الى احتقار البشرية والتقزز من كل ما تمت الى خدمة الانسان بصلة، وبحيث ينمو مركب الحقد والنقمة حتى بالاباء على الابناء، وبالابناء على الاباء، وهذه هي حقيقة فسيولوجية الجنس البشري، ما في ذلك ريب.. بعد انكسار جيش الجنرال طونزند في وقعة "سلمان باك" وانحداره على امتداد ساحل دجلة الايسر، لا اعرف كيف اختار قائده مدينة مكشوفة كالكوت لأن يرابط بها دون ان ينذر سكانها بالرحيل او ان يرحلهم عنوة بالحفاظ على حياتهم التي كان بودهم دون شك ان تهدر عاجلا بما ينتظر من طوارئ الطريق – خير من ان تبقى حياة يرون بها الموت بين ساعة واخرى في غضون اشهر الحصار، ومهما برز الجنرال طونزند ذلك الاهمال بما يملك من مبررات، ومعاذير، فلا يمكن ان تنسى الانسانية له ما ارتكبه من جريرة، تعتبر وصمة عار عليه كما امتد البصر الى تلك الواحات المليء برفاة القتلى بسلاح الحرب والجوع!! دون ما التفات الى "التفخيمات الرسمية" التي والت بها "العاهلية" فرقة الحصار وعلى رأسها قائدها المكابر العنود!

وقع "حصار الكوت" بين ١٩١٥/١٢/١ و١٩١٦/٦/٣ واتخذ في خلاله الجنرال طونزند من بلدة اغلب مبانيها الطين، وهي مكتظة بسكان عزل، اتخذ منها "حصنا" يدافع به الاعداء، واتخذ من وجوه البلد رهائن حبسهم في سجن عسكري رهيب اشقاقا من انقلاب الاهالي عليه؟! وهدد باعدام الرهائن متى توجس خيفة من اي كان من السكان!!

علي حسين ان الجيش التركي احاط بجهات "الحصن"؟" بالاعدام رميا بالرصاص بعد ان تدينه بـ "الخيانة العظمى!" وهكذا صح عليهم المثل بانهم اصبحوا بين "شفى رحا" او ينلطون "بين نارين".

هذا ولم تسلم حمير البلدة من الذبح ليتمكن الجنرال طونزند باطعام لحومها لجيشه من امتداد "صعوده!" على الحصار لخمسة ايام اخرى!. ولو نطقت الحمير لاثرت الذبح القصير على الجوع الطويل! وغير خاف ان هزيل اللحم يفقد كثيرا من مواد التغذية، ان صح ان للبشر اذ ذاك امتيازا على الحمير في مفاهيم الجنرال طونزند، بحيث من الممكن ان يتغذى البشر بهزيل لحومها..! وخير لقدمى الجنرال طونزند ان يطأ جثث جياع البشر بدلا من جثث جياع الحمير!!

... واخيرا:-

١. اليس من حق الجنرال جعفر العسكري ان يقول في مقدمة "خواطر الجنرال طونزند" ان في "الخواطر" المجال لاعتراض المعترضين، ولسوف تظهر الحقائق حين ينشر الترك والانكليز مستنداتهم ووثائقهم الرسمية؟؟ وقد نشرت المستندات والوثائق وقرأناه في كتاب "تاريخ الحرب العظمى" ذلك الكتاب السميك، فلم نجد بينها ما يشير الى وساطة الجنرال الاسير بالهدنة وعقد الصلح، ولكننا عرفنا ان هناك من سفه رأيه في الحصار، وبالرغم من ان الجنرال منح وسام الحمام من درجة فارس، ووسام الاستحقاق، ثم تبوأ مقعدا في مجلس العموم لم ينعم به كثيرا اذ وفاه الاجل بعد قليل.. وربما كانت تلك المكافآت من أجل اتلافه ما يزيد على ثلاثين الف نسمة من "جنود النجدة" و"الاهلين" وذلك في سبيل الابقاء على فرقته التي تناقص عددها الى ادنى من عشرة الاف نفس، ثم اخذ العدد يتناقص في طريق الاسار من الكوت الى عاصمة العثمانيين الى ان اجهز الموت على نصفه!

وكانت النتيجة ان استسلم الجنرال المعاند للجيش التركي صاغرا هو وافراد فرقته الذين كانوا امواتا في قوبر احياء متحركة بعد ان طال اصراره على رغبة لم تنته بعرض جيشه الهزيل في احياء بغداد واخذه مأسورا – هو وقائده – الى استانبول وحسب، بل تعدت الى ان يقبض قائد الجيش التركي على افراد من وجهاء الكوت وان يعلقهم على اعواد المشانق بدعوى "التعاون مع العدو!" وكان منهم بالامس من هو رهينة لدى جيش طونزند، لمنع تعاون الاخرين مع العدو ايضا، فتجدد العويل وترملت الارامل وتيتمت الاطفال..!!!

فيالها من حكمة.. (!) ويالها من عبقرية... (!) لا نستحي ان نلصقها اعتباطا بالقائد الذي اعترف هو نفسه اثناء اساره بان اصابه مس من الجنون!!

مجلة القلم 1964

المكتبة الوطنية ببغداد.. متى تأسست ومن هو اول مشرف عليها؟

عبد الكريم الوائلي

المكتبة الوطنية.. موروث صحفي عراقي يكاد يكون نادرا ومن مفاخر هذه المكتبة انها تحتفظ بمجموعة كبيرة من الصحف والمجلات والكتب النادرة التي تعتبر اصدق مرجع للباحثين والمؤرخين في مواجهة تاريخ العراق الحديث.

يعود تاريخ المكتبة الوطنية الى عام ١٩٢٠ عندما تألفت لجنة خاصة من كبار الادباء والعلماء والوجهاء العراقيين التي اخذت على عاتقها جمع التبرعات من المال والكتب لتأسيس مكتبة عامة. وقد تم فعلا افتتاحها في ١٦/٤/١٩٢٠ وقد سميت بـ(مكتبة السلام) تيمنا ببغداد مدينة السلام. وقد اشرف على ادارتها في تلك الوقت الأب (انستاس ماري الكرملي) وكانت ميزانيتها آنذاك نحو ٣٣٤ دينار وبعد مرور عدة سنوات اصبحت المكتبة تابعة الى وزارة المعارف بعد ان عجز القائمون على ادارتها بالاستمرار في تقديم الخدمات للقراء. بعدها انتقلت المكتبة الى المدرسة المأمونية في باب المعظم واصبح اسمها (المكتبة العامة) وفي عام ١٩٢٩ وبامر من الملك فيصل الاول اصبحت المكتبة الرسمية للبلاد وبعد ان خصص لها بناية منفصلة في شارع الرشيد قرب باب الأغا.

وفي عام ١٩٥٧ أزيلت بناية المكتبة العامة نتيجة لافتتاح شارع الجمهورية، فانتقلت المكتبة الى دار شارع الزهاوي وظلت حتى انتقلت في العام ١٩٧٧ الى البناية الحالية.

وكانت المكتبة تعرف بالمكتبة العامة حتى عام ١٩٦١ حيث صدر قانون المكتبة الوطنية رقم ٥١ لسنة ١٩٦١ الذي نص على تأسيس مكتبة في بغداد تسمى بالمكتبة الوطنية تقوم بجمع وحفظ الكتب والمخطوطات والمطبوعات الدورية والمصورات وغيرها ممن لها علاقة بالتراث الوطني العربي وما يتصل بالحضارة والتراث الانساني والعمل على تيسير انتفاء الباحثين من هذا الموروث الحضاري وفي عام ١٩٦٤ الحقت المكتبة بوزارة الثقافة والارشاد بموجب القانون رقم ٣ لسنة ١٩٦٤.

وفي عام ١٩٧٠ شرع قانون الايداع رقم ٣٧ وبموجبه اعتبرت المكتبة الوطنية مركزا للابداع القانوني وقد صدرت التعليمات الخاصة بالايداع لتوضيح القانون وفي عام ١٩٨٧ تم دمج المكتبة الوطنية مع المركز الوطني للوثائق ليكون (دار الكتب والوثائق) وذلك استنادا الى تعليمات وزارة الثقافة والاعلام رقم ٨ لسنة ١٩٨٧ وبهذا التشريع اصبحت المكتبة الوطنية احد تشكيلات الدار..

لقد تعرضت دار الكتب والوثائق عند سقوط النظام الى النهب والسلب والحرق.. لكن بحكمة ودراية مديرها العام الاستاذ الدكتور سعد بشير اسكندر وبجهود العاملين في هذه الدار اعيدت الحياة لها.. لقد دأبت المكتبة الوطنية على اصدار العديد من المطبوعات العراقية مثل الببلوغرافيا الوطنية العراقية وكذلك روافد ثقافية ومجلة الفردوس وكثير من المطبوعات وكذلك تقوم الدار بتبادل المطبوعات على مستوى عربي واقليمي ودولي وتطوير العلاقات الثقافية بينها وبين المكتبات الوطنية في العالم. وتوفير واقتناء النتاج الفكري العراقي الذي يصدر خارج العراق لمؤلفين او مترجمين او محققين عراقيين وكذلك اقتناء المطبوعات التي تخص العراق الصادرة باللغات العالمية لتغدو مجموعات المكتبة متكاملة وشاملة. لقد تم اعادة ترتيب وتنظيم مجاميع المكتبة بمختلف موادها وموضوعاتها كخطوة لتهيئتها وفتحها امام الجمهور وان تبدأ بتقديم خدماتها الى الباحثين وطلبة الدراسات العليا.. وفعلا تم افتتاحها في ٨/٧/٢٠٠٤ بعد تهيئة قاعة للمطالعة تتوفر بها كل وسائل الراحة من تكييف وتدفأة وقاعة مريحة للمطالعة كذلك وجود الحاسبات لتسهيل عملية البحث عن الكتب الحديثة والقديمة بما يتناسب ونهضة العراق الجديد.

ذكريات ايام زمان

حزب فاشستي في العراق في الثلاثينيات

عبد القادر البراك

صحفي راحل

عبدالقادر البراك / صحفي راحل

لأول مرة.. كشف النقاب عن فكرة تأسيس اول حزب فاشستي في العراق

بدأت في عيادة طبيب معروف بمحلة الحيدر خانة

قد يستغرب الكثير من متتبعي احداث العراق في التاريخ الحديث، ان يكون اعوان نوري السعيد، السياسي العراقي المعروف بولائه واندفاعه الشديد نحو المعسكر الغربي، هم اول من فكروا بتأسيس حزب فاشستي على غرار الحزب الذي اسسه موسوليني في ايطاليا، وهو الحزب الذي يضمر له اعوان السعيد الكره والعداء الشديدين!

لكن الواقع الذي يعرفه بعض من عاصروا تلك الفترة يملكون التأكيد على الامر الذي لم يتوقعه المعنيون بتاريخ العراق، وهو ان تنبثق فكرة قيام الحزب الفاشستي في العراق بعد ان خاض نوري السعيد واحدة من اكبر معاركه ضد الشعب العراقي حين الف حزب (العهد) وابرام المعاهدة العراقية – البريطانية سنة ١٩٣٠ باوسع اغلبية برلمانية لم تنتخب انتخابا حرا!

ذلك ان نجاح الدعاية الفاشية في الوطن العربي بعد ان سيطر (الدوتشي) وهو لقب موسوليني على الحكم في ايطاليا وادعى مناصرته وحمايته للعرب المجاهدين ضد الاستعمار الفرنسي في المغرب دفع للاستجابة لدعايته عدد من الزعماء، العرب كان من بينهم شكيب ارسلان الزعيم اللبناني المعروف وعلي ماهر السياسي المصري واحد رؤساء الوزارات الذين وقفوا الى جانب الملك فاروق في الكثير من الازمات والى جانب ثوار يوليو حين اطاحوا بعرش هذا الملك الطاغية.

وكان من ابرز دعاة الفاشية في العراق عدد من اعوان نوري السعيد كما قلت، وفي المقدمة منهم النائب الموصلي ثابت عبد النور واخرون، كانوا يجتمعون عصر كل يوم في عيادة الدكتور اسماعيل الصفار فوق مقهى حسن العجمي المعروفة في منطقة الحيدر خانة بشارع الرشيد، والى تبني عبد النور لفكرة قيام الحزب الفاشستي اشار المرحوم مصطفى علي في قصيدة له لم تنشر قال فيها:

وقالوا دعا للفاشية (ثابت)

فقلت لهم: لا تعجبوا من دعايته.

وكان من ابرز رواد عيادة الدكتور الصفار، الدكتور فائق شاكر احد امناء العاصمة بغداد وسقيق المجدر الفني جلال شاكر المعروف بنكاته اللاذعة والشيخ بهاء الدين الشيخ سعيد وعبد الرزاق الحصان وغيرهم.

وقد جرى ذكر ذلك في مجلس الشاعر معروف الرصافي فنظم بيتين من الشعر كانا نواة لاروع قصيدة سياسية لهذا الشاعر، اما البيتان فهما:

يا قوم خلو الفاشية انها

في الساسيين فظاظة وتعجرف.

وحين عرض الرصافي القصيدة على بعض اصدقائه وهم من الكثرة بمكان، قالوا له من خيرة الابيات.

وبعد فهذه نبذة عن فكرة تأسيس اول حزب فاشستي في العراق اعقبها نشاط قد يكون مدار تعليق في نبذ قادمة وفي وقت قريب والى اللقاء.

مجلة الحضارة العدد الاول 1987

مصطفى علي

شكيب ارسلان

د. فايق شاكر

الملك فاروق

العراقي الذي كلف انكلترا مليون ليرة

المستر هرمز رسام رجل نعتته بعض الصحف الانكليزية في اواخر القرن الماضي باسم الرجل الذي كلف انكلترا مليون ليرة انكليزية) ونقدته صحيفة اخرى باسم الرجل الذي اعلنت انكلترا حربا لاجله. ولد هذا الرجل في الموصل سنة ١٨٢٦ وكان له اخ يدعى (كرستيان رسام) ذهب الى اوروبا وتربى هناك ثم صحب (الكولونيل جزني) في بعثه الى (الفرات) الانكليزية التي جاءت الى هذه الديار قبل نحو قرن، وقد ادى لهذه البعثة خدمات كثيرة فكافأته الحكومة البريطانية بتعيينه وكيلا للقنصل في مدينة الموصل سنة ١٨٢٩ اما هرمز فقد تربى عند اخيه وكان ذكيا نابها فلما جاء المستر لايراد المنقب البريطاني المشهور الى الموصل سنة ١٨٤٥ ونزل لدى وكيل القنصل وجد في اخيه الرجل الذي سيساعده على الحفريات ويكون واسطة الصلة بينه وبين العمال الذين يعرفهم ويعرفونه فاصطحبه في اعماله وظل يساعده وعنه يقول المستر لايارد في كتابه (نينوى وبابل) بعد ان يثني على مجهوداته ومساعدته اياه تلك المساعدة التي استحقت ثناء امناء المتحف البريطاني وبعد سنتين اصطحب معه (هرمز رسام) فدخل هذا جامعة اوكسفورد واكمل دراسته فيها وبعد انتهائه انتدب للمتحف البريطاني لمساعدة المستر ليارد في سفرته الثانية سنة ١٨٤٩ وظل يشتغل معه مدة طويلة الى ان تخلى الاخير عن التنقيب فعينه المتحف آنذاك ليقوم مقامه فاخذ يكتشف اشياء كثيرة منها (اثر صيد الاسود) الموجود الآن في المتحف البريطاني وغيره من الآثار النفسية وفي هذا الاثناء احرز لنفسه مكانة كبيرة في الموصل بين الناس وكان ذا شخصية معتبرة يعرفه الكبير والصغير ولا شك ان للنفوذ التي كان يبذلها على العمال في تلك الايام العصيبة تاثيرا كبيرا في اعلاء مكانته بين الناس ولا يزال بعضهم يذكرون مقام الرجل ومأثره ومن الغريب هنا ان (هرمز رسام) بعد عودته من الموصل اصبح يحمل لقب (مستر) وكأنما لم يرق للناس ان يسموه مع اللقب الانكليزي بالمستر (رسام) فحرفوا كلمة (مستر) الى (مصطو) وهو مقابل مصطفى باللغة الكردية فاصبحنا نسمع من الشيوخ احاديث (مصطو رسام)

ولا ادري اذا عاد المستر انتوني رسام الموصل هل يسميه اخواننا الموصليون باسم (مصطو) كأبيه ام انهم تعودوا على كلمة المستر الآن..!

وبعد ان انهى هرمز رسام حفرياته عاد الى لندن وهناك تقرب الى شركة الهند الشرقية التي اعترفت بنبوغه التي كانت الى ذلك اليوم الحاكمة على الهند وما يليها فعينته هذه الشركة مترجما رسميا في (عدن) ومنها تعارف على شيوخ القبائل. وعند اشتعال الحرب العالمية عاد الى لندن ثم ذهب الى استراليا مشتغلاً بالزراعة وها هو يأتي الآن منفذا وصية ابيه عن الحفر التي لا يعرف بها احد كما انه يود الاشتغال بالاقتصاديات لانه مركز اقتصادي كبير.

الدكتورة لمعان امين زكي

رائـــدة مـــن رواد طـــب الاطـــفـــال فـــي الـــعـــراق

ولدت في بغداد ودرست فيها وتخرجت من كلية طب بغداد ثم حازت على دبلوم صحة الطفل من جامعة لندن وعلى عضوية كلية الاطباء (لندن) ثم على زمالة كلية الاطباء الملكية (لندن) وعملت في بغداد منذ التخرج. ثقافته الاسلامية العربية وطلعته المهيبة، ان ما يهمه انتقاء الكلمات والتعابير والاستشهاد بابيات من الشعر العربي. كما كان يحرص على ذكر ترجمة المصطلح العلمي باللغة العربية ويشرح الاصل والاشتقاق وكثيرا ما كان يستطرد فينقل مناقشاته في المجمع العلمي الى قاعة الدرس.

ومعه كان الاستاذ صائب شوكت فارسا حلبة وفرسا رهان، يتنافسان ويتناوبان على عمادة الكلية ولكل منهما اتباعه ومريدوه. كان الاستاذ صائب شوكت شخصيته الطاغية وادفاعه في الوطنية يثير محبة الطلبة ورهبتهم في ان واحد.

كان يراقب دواء الطلبة والمدرسين في الردهات والمختبرات ويحرص على مظهر الطلبة وسلوكهم ايضا، ليش شعرك طويل.. انت بنية؟ طلع ايدك من جيبك حين تكلم استاذك.. كان يريد من الطبيب ان يسلك سلوك الرجل الكريم، والادب كان يقضي ان تكون السترة مزررة واليد خارج الجيب حين يكلم الفتى ولده او من هو اكبر منه.

وكان للاستاذ شوكت الزهاوي مثل هذا الحرص على سلوك الطلبة كما انه اثر الانصراف الى البحث العلمي فلم يفتح عيادة خاصة تدر عليه ارباحا اضافية.

الاستاذ المرحوم عبد الهادي الباجه جي بتربيته الاسطنبولية ودراسته الباريسية كان مثال السيد الكريم الدمث الفكه والانساني المترفع عن الصغائر كان يلقي درس السريريات الابتدائية بعربية دارجة بغدادية سمعية وبمصطلحات عربية فصيحة وجميلة، كانت مستعملة في كليات الطب العثمانية التي كانت تتعامل مع اللغة العربية تعامل الغربيين مع اللاتينية، مع تردد المصطلحات الاجنبية كما يلفظها الفرنسيون، فيسر الطلبة بترديد تلك الاصطلاحات على طريقته.

لقد انطبع في ذاكرة طفولتي نظيفا اشقر جميلا مهذبا حلو المعاملة والتصرف.

ثم المرحوم الاستاذ جلال العزاوي، كان رقيق القلب مرحا محببا للاطفال ينتظره كل صباح عند منهم في مدخل قسم العيون فيوزع عليهم نقودا معدنية وهو يضحك معهم ويمرح ويمد يده مداعبا شعر هذا قارصا خد ذاك والكل ضاحك بسعد بمداعباته.

ثم هناك جماعة الاطباء البريطانيين وعلى رأسهم طبعا الاستاذ سندرسن بلغته المهذبة المنتقاة وحرصه على سلوك الجنتلمان الانكليزي. كان يحضر الى المحاضرة متأخرا وهو يتعلل بكثرة المشاغل ويقول خير لكم ان احضر متأخرا من ان لا احضر ومحاضراته تكاد ان تكون على شكل املاء من دفتر كبير سجل فيه المعلومات ، ويكتب على السبورة بخط جميل وكان له حضور مهيب بقامته الطويلة وشعره الفضي وربما لنفوذه الذي يعرفه الجميع ايضا.

والاستاذ ملز العالم المخلص المجد، كان يتمسك بسلوك السادة في العهد الفكتوري، يفتح الباب وينحني لدخول الطالبات ويخاطب الجميع بادب وظرف جم.

لقد كان يتمنى ان يكون قبره في بغداد فلم تتحقق له الامنية، ولكن وصيته شملت بعض الذين عملوا تحت اشرافه في المختبر المركزي وقد استلموا المبالغ متعجبين.

الاستاذ بيتي كان يدرسنا البكتريولوجي وشيئا من امراض الطفليات، وقد كان ضليعا في عمله وكانت دروسه شائقة ولذيذة، وهو سكوتلاندي قصير القامة اشقر الشعر جم النشاط والحركة قريب من الطلبة، وزوجته كانت لطيفة ودودة. ولانها كانت اطول منه قامة ونحيفة جدا فقد اطلق عليها بعض الطلبة الخبثاء لقب دودة البلهارزيا وحين ترك العراق، شغل بيتي كرسي البكتريولوجي في كلية طب شفيلد الى حين تقاعده.

الاستاذ ستيسي، استاذ علم العقاقير وفن التداوي، كان جادا متحفظا يغلب على سلوكه الخجل لكنه كان ملتزما بمواعيد المحاضرات والدروس السريرية، وكانت دروسه شائقة يقبل عليها الطلبة بحماس.

وفي وسعي ان اقول بانه كان من خيرة من درس الطب الباطني في تاريخ الكلية، وكان الطلبة يكبرون فيه علمه وحرصه وانضباطه وحسن تقييمه للطلبة. وقد شغل منصب

لمعان امين زكي

استاذ في كلية طب سنت توماس في جامعة لندن حتى تقاعده. وكانت له مكانة مرموقة بين اساتذتها. درس النسائيات والولادة كانت تدرسه سيدة سكوتلاندية هي الدكتورة ماكداول ويساعدها في الدروس السريرية د. فؤاد مراد الشيخ والاستاذ الدكتور كمال السامرائي وقد كان شابا يرتقي العتبات الاولى في المهنة والتدريس. كانت الدكتورة مداول خجولة ومتحفظة واعتقد بانها لم تجد من معاونيها الدعم والتعاون المالوفين او هكذا كانت فكرة الطلبة. وارجوا ان لايكون ذلك التمييز الجنسي لكونها امرأة ترأست قسما مهما من اقسام الكلية.

اساتذة طب الاطفال

تعمدت تأخير كلامي عن اساتذتنا في طب الاطفال لانهم كالعادة كانوا يستلموننا خلال السنوات المتأخرة من الدراسة اولا، ثم بعد ذلك اصبحوا زملائي الكبار ورؤسائي في العمل وقد طغت صفة الزمالة هذه على علاقتي بهم ولابد لي من ذكر ميزة كانت تجمع بين كل اطباء مستشفى حماية الاطفال. تلك هي حسن الزمالة والتكاتف في العمل اولا ثم الصبر العجيب على كثرة العمل بصرف النظر عن ساعات الدوام الرسمي. فقد كانت مشافي الاطفال ف القطر قليلة. وكان طبيب العيادة الخارجية منهم يعالج ٣٠٠ – ٣٥٠ طفلا في اليوم ، هذا الى جانب واجباته في الردهات وفي الاعمال الادارية، الامر الذي جعل اهتمام الاساتذة يتركز على المحاضرات النظرية. اما التدريس السريري فقد اعتمد على جهد الطلبة في التعلم، مثلا، يدفع لنا الاستاذ بمجموعة من الاطفال ويقول هذه كلها حالات حصبة. فنستلم نحن الاطفال ونقارن اعراضهم بما هو موجود في الكتاب، اي اننا كنا اقل اتكالية على الاساتذة من الوجبات المتأخرة من الطلبة.

الاستاذ الدكتور عبد الله القصير كان يجمع بين ادارة مستشفى حماية الاطفال وبين عمله كطبيب وكأستاذ. وهو موصلي وواحد من رعيل الاطباء العثمانيين كان اول من تخصص في طب الاطفال في العراق بعد ان خدم في الجيش خلال الحرب العالمية الاولى، ثم تقلب في ادارات طبية مختلفة قبل ان يطمئن الى اختصاص طب الاطفال. وهو اول من عمل على فصل العيادات الخارجية للاطفال عن العيادات العامة في المستشفى الملكي، ثم اول من تولى مديرية مستشفى حماية الاطفال. وكانت له الريادة في استحداث عدد من مشايع رعاية الطفولة في العراق بما في ذلك تأسيس جمعية حماية الاطفال.

كان الاستاذ القصير قصير القامة فعلا وافر النشاط عصبي المزاج له قدرة على العمل الطويل المتواصل. وكثيرا ما كان يثور على امهات الاطفال ان لمس منهن اهمالا او تأخرا في مراجعة المستشفى. وكانت الامهات يتقبلن توبيخه كمظهر لاهتمامه بالطفل، دروسه كانت شائقة لما كان لديه من قصص مستعدة من خبرته الشخصية الطويلة.

الاستاذ عبد الامير علاوي كان شابا نشيطا له قدرة عجيبة على مواصلة العمل لساعات طويلة مرهقة في الصباح ثم في العيادة المكتظة في المساء ثم في سهر الليالي في مجالات الحياة الاجتماعية النشطة. كان يحضر الى المستشفى قبل الدوام باكثر من ساعة لتفقد المرضى في ردهته وتوجيه علاجهم ثم يذهب الى عيادته الخاصة ثم يعود الى المستشفى ليفحص مئات من المرضى وليصرف الشؤون الادارية وغيرها من واجبات كثيرة وهو يمزح ويضحك وكان قاموسه لم يكن يعرف كلمة التعب وكانت دروسه السريرية لذيذة وشائقة ولكنه كثيرا ما اضطر على ايكالها لمساعديه، ومن هنا وجدت نفسي اقوم بتدريس الطلبة في المستشفى منذ التخرج! ولابد لي ان اذكر بانه كان يمر بالمستشفى بعد الظهر في طريقه الى العيادة الخاصة وكثيرا ما كان يعود الى المستشفى في الليل حين ينتهي من العيادة، كان مجموع ساعات عمله في المستشفى يفوق عدد الساعات المفروضة للدوام الرسمي وكان يتوقع من كافة العاملين معه ان يفعلوا مثله. كل هؤلاء بما كان لديهم من ايجابيات وسلبيات تركوا اثارهم في نفوسنا الشابة سهلة الانطباع ولكن هنك استاذ كانت لي معه لحظات دقيقة ومؤثرة ما زالت عالقة في الذهن راسخة في الايام ذلك هو الاستاذ كروكشنك كان واحدا من اساتذة الجراحة الكثيرين ولا استغرب ان اغفل ذكره

من ارخ لتاريخ الكلية اخاله جاءنا بعد تقاعده فقد كان يبدو اكبر سنا من زملائه، كان ضخم الجسم جهوري الصوت خشن المظهر ولكنه كان حساسا رقيقا يتجنب ايلام المريض عند الفحص ويحترم حياء العراقيات وحرصهن على اسدال الغطاء على اجسادهن فلا يكشف منها اكثر مما يستوجب الفحص وكثيرا ما استعان بي في الدرس السريري للوقوف الى جانب المريضة والامساك بيدها وتشجيعها على تحمل الموقف.

ولم يكن يضيق ذرعا بما كان يبديه بعض القرويين من جهل شديد في تلك الايام عكس بعض العراقيين الذين لم يكونوا يتحملون هؤلاء بل ربما اهانوهم واذلوهم. وكان قارئا للادب متذوقا للشعر، لغته جميلة واصلاحاته فلسفية.

الفعاليات الطلابية الى جانب الدراسة

× ماذا كان دوركم في نشاطات الكلية وغيرها من الامور كالبحوث والاطلاعات خلال سنوات الدراسة؟

– كنت نشيطة جدا في المشاركة بالفعاليات الطلابية. كانت هناك جمعيات وفرق رياضية ابدى فيها طلاب صفنا نشاطا كبيرا في كرة السلة والطائرة وكرم القدم كما في التنس والبنج بونج وغيرها.

وكان من ابطال الرياضة في صفنا الدكتور علي غالب ياسين استاذ التشريح في هذه الكلية سابقا والدكتور فاضل يوسف كمال والدكتور رشيد الغبان وفخري الحكيم، وفي التنس فيضي الزهاوي وداود مسيح سندرسن كثيرون. اما انا فلم اكن في حياتي من المندفعين في الرياضة وكنت العب البنج بونج والبادمنتون واشارك في التنس بلعب ضعيف. ولكننا كنا نحضر المسابقات ونصفق لفريق صفنا مشجعات.

جمعية الموسيقى كانت سيدة الجمعيات مستوى وتهذيبا. وكان اعضاؤها يستمعون في اجتماعات اسبوعية الى غرر من الموسيقى الكلاسيكية على اسطوانات تستعيرها الجمعية من اعضائها. وكان ذلك يتم حسب منهج يطبع على الالة الكاتبة.

ويسبق كل اجتماع شرح موجز للقطع التي سيتم الاستماع اليها. كان فارس هذه الجمعية الاغر غانم عقراوي استاذ استاذ الجراحة الذي كان واليزال من المهتمين بالموسيقى والادب والثقافة. وكان يعزف على الكمان ومعه سامي الشيخ قاسم المغترب العراقي في اميركا، وشقيقه الاصغر. ابن صفي، يوسف عقراوي استاذ البائولوجي سابقا وكان يعزف على البيانو. ومن ذوي النشاط في هذه الجمعية كانت سانحة امين زكي وامة الزهاوي وامنة صبري مراد وفيصل صبيح نشأت استاذ الفيزيولوجي سابقا وسالم الدملوجي وخالد القصاب وداود سلمان علي وكانت في صفنا بعض الاصوات الغنائية الجميلة كصوت رنين قنطرجيان استاذ الامراض العصبية والذي تردد صوته البارتيون الجميل من قاعة الكلية الى ارجاء منطقة العيواضية كلها واطرب الكثيرين باشجى الاغاني الغربية ومثله المرحوم فيضي الزهاوي. ولم تكن ذوات الاصوات الجميلة من البنات يشاركن في الغناء. وكان للكلية فرقة عزف وترية لاباس بمستواها. كما كانت تحضر معنا نخبة من طلبة الكليات الاخرى منهم من اصبح من المشاهير في مجاله كالقاص المشهور الاستاذ عبد الملك عبد اللطيف نوري والمرحوم الاستاذ مصطفى كامل ياسين ولاستاذ نجدة فتحي صفوت.

× بعض الصور و الذكريات التي ميزت الحياة الدراسية في الكلية؟

– الصور كثيرة جداً وبعضها يظهر في سياق اجابتي على الاسئلة بصورة عامة كانت العلاقة بين التلميذ واستاذه اوثق منها في يومنا هذا. وبين الاساتذة من كان يتوقع منا ان نلازمه طيلة فترة العمل. وكانوا يستعينون بنا في العطل وكلما سمحت لنا واقاتنا.

من الحوادث التي تذكر وفاة الجراح ابراهام الاسود وفوقه الوشاح بلوح براق احمر او اخضر يميز الرتبة الجامعية والطلبة بزيهم الموحد المكون من سترة زرقاء وتنورة او سروال رمادي، يسيرون جميعا بانتظام على عزف الموسيقى العسكرية العراقية مع كوكبة من الجنود. فقد كان معظم الاطباء الاجانب من العسكريين الذين دخلوا العراق مع الحملة البريطانية. واحتشد الناس على جانبي الطريق لمشاهدة هذا المنظر المهيب. وتمت مراسيم الدفن في مقبرة اللاتين الواقعة قرب ساحة الطيران بعد ان القى العميد الدكتور سندرسن كلمة الوداع وبعد ان اطلقت البنادق تحيتها للميت. على هذه لصورة كانت الكلية تقوم بالواجب الاخير لاساتذتها. الا ان هذا التقليد نبذ فيما بعد.

هذا الاحتفال تجسم في ذاكرتي بعد سنين طويلة في فترة توتر سياسي في اوائل الستينات عند وفاة استاذنا الدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطب وعضو المجمع العلمي العراقي وزميل كلية الاطباء الملكية في لندن.

اسرعنا، زوجي وانا، الى داره في الرواف ويسبقنا الى هناك. وكان ابنه سعد يدرس في بريطانيا. توقعنا ان نجد دائرة الاطباء التي كانت تدور في فلكه يوم كان ذو حول وطول. قد سبقتنا الى المنزل. ومن العجب ان احدا منهم لم يكن حاضرا، بل ان الطبيب الوحيد الذي خف لاسعافه وحضر لحظة وفاته كان الدكتور علاء الدينالخالدي استاذ الفرماكولوجي في هذه الكلية سابقا، وهو المعروف بدماثة الخلق والوفاء للمودات.

وفي حفل تابين هذا الرائد الذي اقيم في قاعة كلية الطب كان عند حضور الحفل يعد على اصابع اليدين. والقى عميد الكلية المرحوم الاستاذ احمد عزت القيسي كلمة خرج فيها عن ما هو مالوف في هذه المناسبات. كما ابنه الدكتور سالم الدملوجي ممثلا للجمعية الطبية العراقية. وحين جاء دور المرحوم الاستاذ منير القاضي عميد كلية الحقوق الاسبق، ممثلا للمجمع العلمي العراقي الذي كان يرأسه، تعمد ان يضع الاوراق التي اعدها للمناسبة بشكل ملفت للنظر وارتجل كلمة مقتضبة من معانيها انه حضر وهو يعتقد انه لن يستطيع ان يصل المنصة لازدحام الاطباء في تأبين عميدهم الذي تخرجت على يده اجيال في تأبين عميدهم الذي تخرجت على يده اجيال من الاطباء . واشاد بجهود الاستاذ في تعريب المصطلحات الطبية وفي اعمال المجمع العلمي. ثم التقط اوراقه وانصرف ولم ينتظر نهاية الحفل التأبيني.

طقوس حفلات التخرج

× كيف كانت حفلات التخرج انذاك؟

– بدأت الاستعدادات لحفل الشهادات الذي اقيم تحت رعاية رئيس الدولة في القسم الصيفي لقاعة الملك فيصل الثاني (قاعة الشعب اليوم) وكان هذا القسم الصيفي عبارة عن مدرج دائري مكشوف على طريقة المسارح الرومانية والمسرح الوسط وكانت تحيط به اشجار اليوكاليبتوس الضخمة واحواض الزهور. والمدرجات كانت مزروعة بالحشيش توضع فوقه المقاعد. كانت حفلة التخرج مناسبة رسمية هادئة يحضرها رئيس الدولة والوزراء. انتظرنا في الداخل ضاحكين مازحين معلقين على مظهر بعضنا بالروب الجامعي حتى اعلنت موسيقى الجيش ان الوقت قد حان فدخل اولا موكب الاساتذة الوقور بالروبات والقلانس السوداء تزين صدورهم الاوشحة مختلفة الالوان. وبعد ان استقروا في مجالسهم دخل موكب الطلبة والخريجات يتهادين اصطناع وقار كوقار اساتذتهم، فتخونهم نضارة الوجوه ونظرات الحبور التي يجيلونها بحثا عن مواقع جلوس اقاربهم في الحفلة.

العميد سندرسن القى كلمته بانكليزية فخمة مطعمة بالتعابير اللاتينية وهو يجهد ليرفع صوته على اصوات عصافير المساء التي لم يكن يهمها ان تطمس ذلك الصوت. ثم قام الاستاذ هاشم الوتري بتلاوة اليمين (يمين ابقراط) الذي كنا نكرره بعده جملة بعد جملة. ثم يقدم العميد الطلبة باسمائهم ولبس معظم الطلاب البدلات الغامقة، ومن درس على نفقة وزارة الدفاع حضر بالملابس العسكرية، واقلية من الطلبة استعاروا بدلة فضفاضة، الامر الذي اثار فيما بينهم المزاح والمداعبات.

مستوى الكلية الطبية العراقية

× ما هو رأيكم في مستوى الطلبة خلال سني دراستكم وتدريسكم في الكلية وما بعد ذلك؟ وكيف يقارن مستوى كليتنا بالكليات العربية والعالمية؟

– مستوى طلبة كلية الطب كان ومازال جيداً يؤهلهم للعمل بالمستوى المقبول وللتطور ومواصلة التعلم. وبالطبع هنالك الاقلية النابهة جدا والمتفوقة في كل المقاييس وعكسها الاقلية الخاملة. وهذه الاخيرة كانت في السابق تستبعد في مرحلة مبكرة من الدراسة فيتسنى لها ان تبدا دراسة اخرى غير الطب. بعد هذا القول يمكننا ان نحدد اهم سلبيات الطالب العراقي بالاتكالية الكبيرة على التلقين اولا وبالاهتمام برقعات المرضى كما يراها في المستشفى بمعزل عن خلفياتها الاجتماعية والبيئية ثانيا. ولا ابرئ المناهج الدراسية واساليب التدريس من شطرها من المسؤولية في غرس هذه السلبيات.

اما مقارنتها بالكليات العربية فقد سمعت من استاذة اجانب كثيرين في الخارج ثناء طيبا على الكلية مبنيا على انجاز الاطباء العراقيين الشباب هناك. وهي اليوم تعتبر واحدة من احسن كليات الطب في عالمنا العربي وفي العالم الثالث فيما يختص بتدريب الطلبة واطباء الدراسات العليا.

اما بالنسبة للمراكز الطبية النادرة في العالم فاننا لانجاريها في جوانب مهمة منها تقصيرنا في دراسة المشكلات الصحية المحلية وامكانات مواجهتها وفي تنظيم البحوث والدراسات ذات المستوى الرفيع. اي اننا مازلنا نمثل دور المستهلكين والمتلقين للعلوم والمعارف المعاصرة وليس دور المنتجين لها.

الاطباء العراقيون متفوقون في الخارج

× نسمع كثيرا بان الاطباء العراقيين يبدون التفوق عند الدراسة والعمل في المراكز العلمية الكبيرة في الخارج اكثر منهم في العراق فما هو السر في ذلك؟

– في ظني ان هذا السؤال وما يتعلق به من تساؤلات يرتبط باكثر من سبب واحد يستحق كل منها الدراسة والتمحيص فالعوائق والتحديدات التي يتعرض لها العلماء العراقيون لم تعالج بغير التجاهل والاهمال.

من الاسباب التي تذكر ان اساليب التربية عندنا في جميع المستويات لا تهتم كثيرا بغرس انماط السلوك والعادات التي تنمي نزعة الاطلاع وفن البحث عن الحقيقة من مصادرها، ومنها ان الطبيب محليا مرهق بكثرة المتطلبات الانية، مهنية كانت ام غير مهنية. ومن الضغوط على اوقاته المحدودة، وهناك عوامل اخرى كثيرة.

داعب استاذ منا تلميذه وهما يشاهدان بستانيا يشذب سياجا من النبات ارايت اي الغصون يقص؟ تلك التي ترتفع كثيرا او تبرز.. ونصيحتي اليك لاءات ثلاثة وهي: لا تتفوق .. لا تتميز .. لا ترتفع.

وفي الخارج يعلم الطبيب العراقي، وهو خامة ممتازة منتقاة من بين المتفوقين في الدراسة الثانوية وقد تدرب جيدا في كلية الطب بان نيله لغرض العمل والتقدم لا يعتمد على شيء سوى مستواه العلمي والخلقي واتقانه لمهنته، ولانه اجنبي فانه يحتاج الى ان يضاعف جهوده لكي ينافس ابن البلد في عملية التسابق والتنافس لذا تراه منصرفا الى عمله وعمله.

كما ان الجو الذي يعيشه في المراكز العلمية الاجنبية حيث يتسابق الجميع للاطلاع على الجديد في العلم تجعله يندفع في التيار ويتشبع بمعلومات يكتسب بعضها بالاستماع الى المقابسات والمناقشات.

نعم، ان الطبيب العراقي مبرز في الخارج وغيرها من الازمات وهذه الحقيقة تفرض حقيقة اخرى هي ان الطبيب بقدر حاجته الى التزود بعلوم الطب ومعارفه ومواكبه كل ما هو حديث. فانه يحتاج الى ان يمارس الطب بنوع من التبتل والتفاني، وما اجمل الحكمة التي تقول يريد الله من المؤمن ان يتعشق عمله.

اجرى الحوار
ابراهيم القيسي
جريدة الاتحاد 1985

يسبق كل اجتماع شرح موجز للقطع التي سيتم الاستماع اليها. كان فارس هذه الجمعية الاغر غانم عقراوي استاذ استاذ الجراحة الذي كان ولايزال من المهتمين بالموسيقى والادب والثقافة. وكان يعزف على الكمان ومعه سامي الشيخ قاسم المغترب العراقي في اميركا، وشقيقه الاصغر. ابن صفي، يوسف عقراوي استاذ الباثولوجي سابقا وكان يعزف على البيانو. ومن ذوي النشاط في هذه الجمعية كانت سانحة امين زكي وامة الزهاوي وامنة صبري مراد وفيصل صبيح نشأت استاذ الفيزيولوجي سابقا وسالم الدملوجي وخالد القصاب وداود سلمان علي وكانت في صفنا بعض الاصوات الغنائية الجميلة كصوت رنين قنطرجيان استاذ الامراض العصبية والذي تردد صوته البارتيون الجميل من قاعة الكلية الى ارجاء منطقة العيواضية كلها واطرب الكثيرين باشجى الاغاني الغربية ومثله المرحوم فيضي الزهاوي. ولم تكن ذوات الاصوات الجميلة من البنات يشاركن في الغناء. وكان للكلية فرقة عزف وترية لاباس بمستواها. كما كانت تحضر معنا نخبة من طلبة الكليات الاخرى منهم من اصبح من المشاهير في مجاله كالقاص المشهور الاستاذ عبد الملك عبد اللطيف نوري والمرحوم الاستاذ مصطفى كامل ياسين ولاستاذ نجدة فتحي صفوت.

دراســـة الـطـب كـانـت مـزيـجـا مـن الـحـلـم والـخـيـال والامـل مناهجنا التربوية لا تنمي نزعة الاطلاع وفن البحث عن الحقيقة مسابقات رياضية وحفلات موسيقى وغناء في الكلية الطبية

وجـــــوه ومـــلامـــح

شعوبي ابراهيم.. وتاريخ "الجوزة" الموسيقية

وليد الاعظمي

الاستاذ شعوبي ابراهيم، فنان مبدع، متعدد المواهب، وهو متواضع الى درجة الزهد والتصوف، لايحب الحديث عن نفسه، ولايحسن ذلك، حتى بات مغموراً في اوساط كثيرة من الناس، لايعرفون عنه إلا انه عازف ماهر على (الجوزة)، من الجيل الماضي، وانه لم يساير روح العصر المتطور في المظاهر والمصطلحات.

وانا قد زاملت الاستاذ شعوبي منذ ايام الصبا، وقد امتدت هذه المزاملة اربعين عاما.. عرفت من خلال ذلك مواهبه العديدة، وقابلياته الفنية والادبية..

ورأيت من الواجب علي ان اشير الى بعض اللمحات والجوانب من حياة هذا الفنان القدير، والنابغة الكبير، خدمة للفن وتاريخه وترجمة اعلامه.

* مولده ونشأته

ولد الاستاذ احمد شعيب (شعوبي) في محلة الشيوخ بالاعظمية سنة ١٩٢٥ وهو ابن الحاج ابراهيم بن خليل بن اسماعيل العبيدي الاعظمي. ووالدته العلوية الحاجة ماهية بنت السيد غدير بن السيد قدوري النعيمي الاعظمي.. اكمل الاستاذ شعوبي دراسته الابتدائية في مدرسة الاعظمية الاولى، ثم الدراسة المتوسطة، واكمل دراسته الاعدادية في ثانوية بيوت الامة المسائية الاهلية في الكاظمية، واشتغل بوظيفة مراقب في امانة العاصمة، ثم موظفا في الزراعة.. ثم انتسب الى معهد الفنون الجميلة القسم المسائي، وتخرج في فرع (الكمان) ثم جدد الدراسة في المعهد المذكور ثانية، وتخرج في فرع (العود).

وعين معلما في المدارس الابتدائية، ثم مشرفا على الاناشيد المدرسية في وزارة التربية، ثم مدرسا في معهد الفنون الجميلة، واخيرا مدرسا (للجوزة) في معهد الدراسات النغمية.

وانتسب الاستاذ شعوبي الى فرقة (الجالغي البغدادي) في اذاعة بغداد سنة ١٩٥٢ م، ولازال يواصل عطاءه الفني باعلى مستوى.

× مواهبه الفنية

نشأ (شعوبي) في الاعظمية، وهي بيئة تحب المقام العراقي، وتتذوقه، وتحافظ عليه، وكان في صباه يحرص على حضور المناقب النبوية (المولد) والاستماع الى قرّاء المقام العراقي و(الاشغال) التي يترنم بها (الردادة)، ويحضر حلقات الذكر القادري (التهليلة)، وكان يرعاه ويشجعه السيد جواد السيد قطب، وكان يستمع الى التمجيد ليلة الجمعة وضحاها، وتلاوة القرآن الكريم في جامع الامام الاعظم، وكان على رأس القراء فيه المرحومان الحافظ مهدي العزاوي والحاج محمود عبد الوهاب.

ويضاف الى ذلك كله استماعه الى المقام عن طريق الاسطوانات، وكان يجلس الى بعض العازفين باصول المقام العراقي – وهم كثير في الاعظمية – يسألهم عن بعض القطع الموسيقى الغربية، فهو يعزف على اغلب الاتها بمهارة عالية.

وحيذا ان تتولى مؤسسة الاذاعة والتلفزيون ذلك وتسجل له عزفا على بعض الالات الشرقية والغربية للتوثيق.

والمطلوب من المركز الموسيقي ان يتولى ذلك ايضا ويضيفها الى مكتبته الفنية. ومن المناسب ان نذكر ان لشعوبي براعة في التمثيل، وبخاصة الاتجاه الفكاهي، الذي يتضمن الفرح والانبساط، وهو يناسب ادوار (الحاج راضي).. كما انه ملحن جيد، وقد لحن بعض الاغاني للمطربين قبل عشرين عاما او اكثر بالاضافة الى تلحين الاناشيد المدرسية.

ولابد لي ان اذكر انه نجار ماهر في فن النجارة وكان في شبابه يصنع (الزوارق) الصغيرة، من شرائط الخشب والقماش المشمع، وكان يحمل زورقه فوق رأسه من بيته في سوق الاعظمية القديم الى (الشط) ويعود به ليلا، وكان يصنع في كل صيف زورقين او ثلاثة ويبيعها.

وما زال يمارس هذه الهواية كلما اتسع لها وقته. وان الاثاث الخشبي في بيته كله من صنعه، كاسرة النوم له ولبعض اولاده، ودواليب حفظ الاواني، والرفوف، وخزائن الكتب، ودواليب التحف. وقد صنع كثيرا منها لاصدقائه، وهو يبيعها بارخص من سعر السوق.

* مواهبه الادبية

الاستاذ شعوبي اديب موهوب بالفطرة. وقد نشأ مع اتراب له ذوي نزعة ادبية وفنية مثل المرحومين مولود احمد الصالح وحيدر العمر والاستاذ عبد الرحمن الريس والمحامي عبد الباقي العمر والمحامي عبد الملك ابراهيم وغيرهم، وهو ذكي سريع الحفظ. وقد نظم في شبابه بعض المسرحيات الهزلية بالمشاركة مع المرحوم مولود، وصنعوا لهم مسرحا صغيرا في (بيت جدي لامي الحاج احمد الصالح) وقاموا بتمثيل عدة مسرحيات.

وشعوبي شاعر مطبوع، ذو خيال واسع، وصور فنية بارعة، وهو ينظم القريض بكل اوزان العروض، ومشتقاتها، وينظم الموشحات والدوبيت ويجيد التخميس والتضمين، ويبدع في الاراجيز، كما انه ينظم الشعر الشعبي (الزجل) من المربع وغيره، وينظم الزهيري (الموال) والابوذية والعتابة ببراعة تامة وابداع في الجناس.

وللاستاذ شعوبي قابلية طيبة في النثر، وله سجع مستملح مرغوب وانشا في شبابه بعض (المقامات) واغلبها على سبيل الدعابة والمزاح مع اصحابه واقرانه.

وللحقيقة اذكر ان (شعوبي) الف كتابه (المقامات) ١٩٦١م في (مقهى عباس) بالاعظمية، كان ينشي كل يوم مقامة او مقامتين، يمليها إملاء، فيها سجع ادبي، وفيها معلومات قيمة عن الانغام والالحان والمقامات العراقية ولم يرجع فيها الى مصدر يعتمد عليه، سوى حفظه للاشعار، ولكنه جعل في اخر الكتاب قائمة بالمصادر. وكل افادته منها هي تحديد تواريخ وفيات الاعلام الوارد ذكرهم في الكتاب او الاشارة الى ارقام الصفحات في دواوين الشعراء الذين ذكر لهم بعض الابيات امثال المتنبي والرصافي وشوقي وغيرهم.

واغلب قصائد (شعوبي) في الاخوانيات، ومداعبة اترابه، وتعزية بعضهم في الرسوب اثناء الدراسة.

وكان يلمع شعره بالفاظ عامية او انجليزية وغيرهم، وهو ذكي سريع الحفظ. وقد نظم في شبابه بعض المسرحيات الهزلية بالمشاركة مع المرحوم مولود، وصنعوا لهم مسرحا صغيرا في (بيت جدي لامي الحاج احمد الصالح) وقاموا بتمثيل عدة مسرحيات.

وشعوبي لا يكتب قصائده، ولا يحتفظ بها، بل ينشدها في المقهى او (الجرداغ) او مجلس من مجالس اصدقائه ويعطي القصيدة لمن يطلبها منه ولا يسأل عنها بعد ذلك.

وكان بعض اصدقائه يحتفظون بشيء من شعره مكتوبا، واخرون يحفظونه استظهارا ثم انستهم الايام ذلك وضاع من شعره كثير.

* ثقافته

ذكرنا ان (شعوبي) كان ذكيا، قوي الذاكرة وكان في صباه وشبابه، يكتفي بتقرير المعلم او المدرس في الصف، ولايراجع كتب الدراسة، ولايقرأ إلا في ايام الامتحان. وحتى في ايام الامتحان لايقرأ.

وكنا نخرج الى الحقول والبساتين في شارع عمر بن عبد العزيز، للمطالعة ومراجعة الدروس، وننشغل بالمذاكرة والمراجعة، وشعوبي منشغل باكل المشمش والتوت او الجمار، والسباحة في الساقية.

ويذهب مع اترابه ويعود دون مراجعة، بل كان يلهي اصحابه بطرائفه ونوادره، وغنائه، وعذره في ذلك ان كتبه ممزقة وناقصة من اولها واخرها.. لان يده تعرق وتبلل صفحات الكتاب فيخلعها ويرميها. وهكذا حتى (يطير) الربع الاول والربع الرابع من كل كتاب.

ويضاف الى ذلك ان كتب شعوبي مملوءة في حواشيها بالاشعار والابوذيات والموالات، فاذا فتح كتابه للمطالعة. فانه ينصرف الى مراجعة الاشعار، ولاينصرف الى مراجعة المادة العلمية.

و(شعوبي) يكره المطالعة.. ويضيق صدره بها ولم يكمل قراءة كتاب ادبي ولا ديوان شعر، وانما كان يقرأ القصائد التي تستهويه في دواوين الرصافي والزهاوي وشوقي وحافظ وغيرهم.

واكاد اجزم ان (شعوبي) لم يقرأ كتابا ابدا، اللهم الا ديوان (عبود اكرخي) فقد كان يذهب الى المكتبة العامة في باب المعظم ويستعير

شعوبي ابراهيم يتوسط الفرقة الموسيقية للاذاعة والتلفزيون

شعوبي ابراهيم

اوراق بغدادية

على هامش شارع المتنبي

فؤاد طه محمد الهاشمي

من الوجوه التي عرفها هذا الشارع في الربع الاول من القرن العشرين الشخصية البغدادية الشعبية (رؤوف ابو صحن) هذا الذي اعتاد الدوران في الشوارع فصار وجها مألوفا لدى البغداديين وقد وجد ميتا في بيته اواخر شهر آب / ١٩٣٠.

خضعت البيوت المطلة على شارع المتنبي وكذلك الازقة المفضية اليه لرفع رسم الحراسة وراح الجباة يطرقون الابواب من اجل استيفاء الرسم المذكور قالت (العراق) : (والغريب في امر هذه الرسوم ان يزيد وينقص تبعا لظروف لايعلمها رافع هذا الرسم.

وشهد المتنبي احد الهواة يجلس على الرصيف قرب (القشلة) وهو يلاعب الافاعي والعقارب والمتفوجون يلقون عليه النقود وضبطته شرطة السراي فساقته الى محكمة الجزاء قالت العراق: (سبق الشخص المدعو مصطفى بن احمد الى المحكمة بينما شوهدت بعض الحيات والعقارب بيده يفرج عليها الناس في الشوارع والازقة وقد ظهر للمحكمة ان لا وسيلة لهذا الرجل سوى الشعوذة والتجيل فحكمت بسجله اسبوعا واحدا وامرت بقتل الحياة والعقارب الي كان يحملها في كيسه ويدور بها في الازقة.

من الازقة المنسية التي تقضي الى شارع المتنبي زقاق يسمى محليا باسم (ممش محلة سي) اي محلة محمد وهو من مكتبة العلامة (علي الخاقاني رحمه الله وتنتهي في شارع الرشيد وقد اندرس اسمه اليوم فلم يعد احد يعرف له اسما مثلما اندرس زقاق الخطيب وزقاق سري.

في شتاء سنة ١٩٢٢ شهد شارع المتنبي تأسيس نادي التمثيل للارقاء بالمسرح فصار السيد محمد صالح السهروري – مؤلف كتاب دبد حسن باشا لب الالباب – معتمدا للنادي ونشر بذلك بيانا في جريدة العراق العدد ٥٣٢ في ٨/ شباط/ ١٩٢٢ واتخذ النادي مقرا له في محلة جديد حسن باشا الدار المرقمة ٢١/١٣ وقد اتخذ النادي على عاتقه القيام بتمثيل الروايات التاريخية والادبية ومنفعتها لعموم المدارس الاهلية.

(جريدة العراق) التي نستقي منها هذه النبذ كانت ادارتها اول تأسيسها في محلة (الدنكجية) وهي من مقتربات شارع المتنبي ثم انتقلت الى شارع جديد حسن باشا – طريق الاكمكخانة اي شارع المتنبي نفسه واشغلت ذلك في عددها ٥٠٩ في ١٣/ كانون الثاني/ ١٩٢٢.

الدار المرقمة ٢٢/٧ كما اوردت الجريدة ذلك في عددها ٥٠٩ في ١٣/ كانون الثاني / ١٩٢٢.

في شهر شباط ١٩٢٢ شهد شارع المتنبي ازدحاما كبيراً بسبب قطع الجسر وتوجه الناس الى الشريعة للعبور بالزوارق بين شريعة المحكمة في نهاية المتنبي وشريعة الحمير في الكرخ.

وشهد يوم ٣ ايار ١٩٣٢ وفاة صاحب (مكتبة الزوراء) المرحوم الملا خضر والد عبد الرحمن خضر من اهالي محلة جديد حسن باشا وقد عرف بعرضه لنفائس الكتب العربية من مطبوعات مصر وبلاد الشام.

تجمهر الناس في مقهى الشابندر ليستمعوا الى اول بث اذاعي من اذاعة بغداد حيث جرى الافتتاح الرسمي يوم الاثنين ٢٩ حزيران ١٩٣٦ وبدأ البث يوم ٧ تموز ١٩٣٦ حيث جاءت كلمة الافتتاحية لوزير المعارف ثم القرآن الكريم لعبد العزيز الخياط ثم نشرة الاخبار الداخلية والخارجية والتجارية ثم عزف على الكمنجة لصالح الكوني فمحاضرة حول مكافحة الامراض الشائعة في العراق للدكتور خليل المصطفى فاسطوانات شرقية: عراقية ، سورية، تركية ثم جوق المطربة سليمة باشا والاذاعة تباشر البث عند الساعة الثامنة مساء وينتهي بثها في الساعة الحادية عشر ليلا بالسلام الملكي والجمهور المحتشد في المتنبي ازدحمت به قهوة الشابندر فكان ذلك اليوم وماتلاه من ايام حدثا تاريخيا في بغداد.

فسرعان ما ترى محبيه ينتقلون اليه، ويستمعون الى حديثه وتعليقه وشعره وغنائه، وهو ينسجم بسرعة ويستغرق في الفن حتى يستولي عليه الموضوع، فيسهو عن اصدقائه ولم يسقهم شايا او مرطبات، واحيانا يسقيه زواره وقاصدوه، فلم يشعر بذلك ولم ير فيه معرة. ولم يعتب عليه احد من اصدقائه لحبهم له. وتعلقهم به، ولو صدر ذلك عن غيره لعوتب وقوطع وشعوبي فنان بسيط سليم القلب.. له براءة الاطفال، وهو متواضع وقنوع وخجول، ينتهي من احياء الحفلة، ويعرض عليه القائمون بها ما يشاء من المكافاة فيستحي ويطلب مبلغا ضئيلا، فيعطونه ثلاثة اضعاف ما طلب.

وشعوبي يحب الطعام حبا جما، حتى انه ياكل حلويات نعوش وهو مصاب بالسكر، ويدعي انه (ياكل البقلاوة يليه حس السكر) وهو من العاملين بالمثل القائل (العزايم تحل العزايم) وليست لديه مقاومة عن الاكل الذي يضره ويؤذيه.

ولشعوبي في وصف الطعام واللحم والعظام قصائد عظام!

منها (الثانية الوسطى) التي عارض فيها ابن الفارض في ثانيتيه الكبرى والصغرى قال شعوبي:

تذكرت احبابي فقلت لمقلتي
افيضي دموعا بعد فقد الاحبة
احباي كاسات الطعام جميعها
وكيف يعيش المرء من غير اكلة

الى ان يقول:

خرجت بليل والنجوم لالئ
به البدر انساني همومي ومحنتي
قصادفت عن بعد رجالا وبينهم
بصير بدا من بين تلك الجماعة
عمامته بيضاء لاح كانه

افضل مخرج اذاعي في الوطن العربي

مهند الانصاري سرقته الاذاعة برغم عشقه للسينما

قحطان جاسم جواد

مهند الانصاري

مهند الانصاري بين محمود الميلجي وتوفيق الدقن

في العام ٢٠٠٠ رحل الاذاعي الكبير والفنان القدير مهند الانصاري بعد رحلة فنية تجاوزت الخمسين عاما كان فيها مثار اعجاب اهل الفن في الاذاعة والمرسح والسينما.. لا بل ان بعض اعماله الاذاعية يشار اليها بالبنان في الوطن العربي كله واقصد بها اعماله عن القمم الخالدة التي كتبها له السيد الشوربجي لاسيما عن ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الاطرش.. حيث قدم لنا حياتهم بعد رحيلهم وكانهم احياء فعلا.

الفنان مهند الانصاري عرفته عن قربٍ نهاية السبعينات حيث كان نورسا يأتي الى بغداد ليغادرها الى بيروت والخليج العربي ثم مصر ليعود الى بغداد مجددا ينهل منها الفن والحب..

ثم تعمقت علاقتي به جدا الى الحد الذي صرنا نجتمع يوميا في غرفته عندما كان مديرا للاذاعة ثم تفرغ الى ادارة مركز الانتاج الاذاعي الذي كان احد احلامه وهو مركز يعني بانتاج الدراما الاذاعية والمسلسلات والبرامج لرفد الاذاعة بها وعن المركز ايضا انتج (الكتاب المسموع) وهو ايضا من احلامه البارزة وصدر عنه عدة كتب عن الثقافة العراقية واخرها عن مقام الرست والقائمة تطول. كان رحمه الله انسانا يمتلك هيبة.. مدير لكنه بلباس موظف بسيط يجلس مع اصغر موظفيه يتقاسم معهم الرأي والعمل.. كان مجاملا رغم انه احيانا يقول رأيه الصريح الى حد القساوة لكنها ليست قساوة تتم عن لؤم او خبث بل يعدها اراء موضوعية او نقدا ذاتيا.. هذا الرجل كان لي شرف الاقتراب منه ومن افكاره... كان يحمل سيلا جارفا من الافكار الجميلة والجريئة لكنها تصطدم بالروتين القاتل.. وياما وجدته حزينا بسبب عدم تنفيذ احد مشاريعه المهمة بسبب الروتين او قلة الميزانية.. كان يعتصر الالم قلبه العليل من جراء ذلك وجعله يتعرض الى نوبات قلبية مما سرع في رحيله عن دنيانا.

كان الانصاري رحمه الله محباً للاذاعة على نحو غير مألوف ينافسه في ذلك عشقه الاولي للسينما.. وازداد حبه للاذاعة بعد ان اخرج ثلاثة افلام للسينما واكتشف ان الصعوبات فيها كبيرة وتحتاج الى ميزانية ليس بوسعه توفيرها فتعزز الحب الاذاعي وكبر بمرور الايام.. ويكفيه فخرا واعتزازا ان يقدم في اعماله التي اخرجها بنفسه العديد من نجوم الفن العربي كممثلين امثال امينه رزق وتوفيق الذقن ومحمود المليجي ومحمود ياسين وسميحة ايوب الى نور الشريف وفاتن حمامة ونجلاء فتحي ووردة الجزائرية وغيرهم وقد وصلت شهرته الى كل انحاء العالم العربي بحيث صارت محطات الاذاعات العربية ترسل في طلبه لاخراج اعمال اذاعية لحسابها وبعضها عرض عليه مناصب رفيعة يرفضها لانه يعتقد انه طائر نورس يحلق متى يشاء بعيدا عن الروتين والقيود والتقوقع في مكان واحد..

مهند الانصاري بدا رحلة الفن ممثلا في السينما بادوار صغيرة في فيلمي (فتنة وحسن) و(وردة) وحين لمس فيه مقدم برامج الاطفال الشهير عمو زكي لمحات الابداع ارسل بطلبه ليعمل في تمثيلية (بلغ امنيته) وكان ذلك في العام ١٩٥٧ ثم اشترك في تمثيلية اخرى في العام ١٩٨٥ مع بثينة اسماعيل بعنوان (الذبيح كما مثل الانصاري في المسرح بعدة اعمال وكانت المسرحيات على الهواء مباشرة ثم اخرج البعض الاخر بعد ان اسس فرقته (الفنون) وعمل معه فيها كل من الفنانين (صادق علي شاهين و د. عبدالقادر الدليمي وعدنان الصراف وعناية الله الخيالي) الذي انفصل فيما بعد ليؤسس فرقته الخاصة..

وكان الانصاري يتعاون مع رواد الفن انذاك مثل (محسن فوزي الامين وفاضل بهرام) ومن ابرز اعماله التي اخرجها (قهوة طرف – كلنا بشر – ورطة) اما في السينما فقد اخرج ثلاثة افلام كما قلنا وكان كلما يجمع نقودا كافية يلج تجربة سينمائية وافلامه هي (ادبته الحياة) كتبه واخرجه الانصاري ومثل بطولته وعرض في بغداد بـ (سينما ريجنت) بتاريخ ١٩٥٨/١/٦ ويتناول انحرافات الشباب ومدته اربعون دقيقة مما اضطر دار عرض سينما ريجينت لعرض فيلم اجنبي معه في ان واحد والفيلم الثاني (القضية ١) والفيلم الثالث (القمة الباردة) وبعد هذا الفيلم لم يعد الانصاري الى السينما لانه اكتشف انه لابد من تقديم شيء متميز والا فلا عودة الى السينما.. فتفرغ للاذاعة ليصبح احد فرسانها ونجومها في الوطن العربي.

من ابرز رجالات الاذاعات الذين تاثر بهم الفنان الراحل هما عبد الله العزاوي الذي يدين له بالفضل الشديد حيث تعلم منه ابرز فنون العمل الاذاعي وكذلك المخرج العربي كامل قسطندي الذي يعد من ابرز المخرجين الاذاعيين في الوطن العربي رحم الله هذا الفنان الكبير.

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون